الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٧ — ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧ — أول أغسطس سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
٦٨٢	حرمة القبور	للكاتب اسبيدار جودورف	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة ... ...
٦٩٢	ثروة لم تخطر على بال	للكاتب الايطالى بوكاتشو	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...
٦٩٤	الحب فوق الجبل	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..
٦٩٦	شهادة الصلاحية للزواج ...	للكاتب الفرنسى بول بورجيه ...	بقلم الأديب عبد الله الرياشي .. ...
٧٠٥	يد الهندى	للكاتب الأمريكى لوريمر استودارد	بقلم السيد محمد العزاوى ... ...
٧١٢	نكث الأمومة	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
٧٢١	المجنونة	للكاتبة الفرنسية مارى بنيرى ..	بقلم السيد صلاح الدين المنجد . ...
٧٢٤	الكأس وقطعة النقود ...	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب مصطفى صبحى .. ...
٧٣٣	حاجى بابا فى انكلترا	تاليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...

حرمة القبور

بقلم اسبيدار جودورف
للأستاذ محمد لطفي جمعه

تعريف بالقصة

اسبيدار جودورف كاتب روسي منفي في لندن وهو ضد البولشفيك ، بل عدو لدود للسوفييت وهو من أكبر خصوم ستالين ولذا نراه يصور الشاعية (كوميونزم) تصويراً قاتماً ، ويمزج قصصه التي تنشرها مجلات أرجوسي وستراند وبلاكورد وماي رفيو بالعشق والاجرام والفلسفة . ومعظم التصاوير التي يلونها بألوان زاهية أو مظلمة منتزعة من الحياة . ولذا آثرنا نقل هذه القصة التي تنطوي على محاكمة متهم ذي شخصية نادرة المثال . بشرح حاله محام يأت به أعظم مدره في الدفاع عن مذنب بريء . ولما كانت تهمته تدور حول جريمة انتهاك حرمة المقابر فقد جعلها المؤلف عنواناً لقصته

نظر القاضي إلى المتهم نظرة جد وأسى ، وقال له : أيها المتهم هل لديك ما تقوله مضافاً إلى الدفاع الذي فاه به محاميك فأنت بلا ريب آخر من يتكلم

فأجال المتهم نظــــره في الحاضرين ثم شد على نفسه كمن يعتزم أن يقوم بأعباء حمل ثقيل أو يحط عن كاهله عبئاً وقال :

نعم أيها القاضي ! سأتكلم ! لقد لفظتني الحياة من صلب فلاح خشن ، ورحم امرأة من بني جلدته وأهل طبقته ، في قرية من أقصى قرى الريف البولوني ، منذ خمسة وخمسين عاماً . وكنت وأبي وأمي وإخوتي وهم أربعة وأخواتي وهن خمس نعيش جميعنا في قاعة صغيرة ضيقة لا نافذة لها ، سوى تلك التي فتحت في جدار مشترك بيننا وبين الأنعام ، وعلى هذه النافذة أو الجدار الذي كان قاعدة لها توضع في كل عشية « مسرجة » من التنك[1] لها شريط أسود مشبع بالبترول والهباب فتخرج من الدخان أكثر مما تبعث من ضوء . وكنا من الضيق والضنك بحيث كانت أمي تخشى على عفة أخواتي من إخوتي ، وكانت تغمغم دائماً قائلة : « إن اختلاط الجنسين خطر » ولذا صممت أن تكون هي ورجلها حجاباً حاجزاً بين البنات والصبيان من أسرتهـا البائسة

فسأله القاضي : ألم تكن تلك المرأة تخشى على عفة الصبيان من بعضهم بعضاً وكذلك البنات ؟

فأطرق المتهم وقال دون أن يرفع بصره إلى وجه القاضي :

— لم يكن الفساد قد وصل إلى هــذا الحد في القرى . ولا تنس أن هذا التاريخ يرجع إلى أربعين عاماً . فنظر إليه القاضي وقال : استمر ... !

— وكان أبي — تغمده الله برحمته — مدمن الشرب فكان يضيع كل ما يربحه وتربحه أمي وإخوتي في الحانة حتى اضطررت على حداثة سني أن أعمل عند صانع أحذية في المدينة المجاورة ، وكان هذا الرجل — صانع الأحذية — قاسياً غاشماً فكان يعاقبني أحياناً بالطعن بعديته التي يقطع بها الجلد وطوراً بالجلد بسوط من عصب الثور المفتول . ولم يكن أحد يفكر في إنقاذي من مخالبه أو رفع شكواي إلى الشرطة لأن رجالها ـ رجال الشرطة ـ

(١) معدن أبيض رقيق يستخرج من شواطئ بحيرات أمريكا ويعرف هنا باسم الصفيح

كانوا يصلحون أحذيتهم ويخصفون نعالهم فى حانوته الملعون . غير أننى كنت أقبل العذاب والعقاب راضياً لو أننى تعلمت شيئاً من صنعة الاسكاف ، فقد كان اللعين يضن بها ، ولا يبوح بأسرارها إلا لولديه اللذين طالما لطخا وجهى بمادة « الرسراس » ليضحكا منى ويسليا والدهما على حسابى . أما أمى المسكينة — طيب الله ثراها — فكانت تلتمس رزقها فى الشوارع والطرق ، وتدخر ما تكسب لقوت أولادها وبناتها وللغض عن أبى حين يسرق بعض النقود ليشترى بها أكواباً من الكحول الذى أحرق كبده وقضى على حياته. كانت المسكينة تطهى الطعام فى بيوت المتوسطين ، وتغسل الثياب وتمسح الخشب وتنظف الجدران وتبيع الخبز القديم « المرجوع » وتذبح الدجاج والأوز لليهود ولا ترفض عملا تجد فيه كسبا إلا ما كان يمس العرض والشرف . وفى إحدى الليالى جاء والدى نصف مخمور ، فأيقظنا جميعاً ، وبدلا من أن يقسم بيننا فطيراً أو كعكاً قال لها بمسمع منا جميعاً :

جميلة جداً شريعة القوقاز ، وعادات جورجيا الصغيرة التى يعيش فيها المسلمون والنصارى على قدم المساواة . إن الأسرة الكبيرة كأسرتنا يمكنها أن تبيع بعض أولادها وبناتها بمبالغ حسنة ، تتخلص من متاعبهم وتفتح لهم أبواب الرزق فى قصور الأغنياء . ربما كانت إحدى بناتك يا امرأة تكون سلطانة أو أميرة شرقية لو أنك تمكنت من بيعها ! وكذلك أحد أولادك ...

فزأرت أمى فى وجهه كأنثى الأسد ، وقالت له : أصمت أيها الخبيث اللعين ، الطامع السكير ، حتى أولادى تفكر فى بيعهم لتشترى لنفسك بثمنهم خمراً . خسئت أيها الوغد المخمور . إننى أقتلك قبل أن تفكر فى هذا . فضحك والدى — رحمه الله — لأننى لا يحق لى أن أسبه أو أنسى الانتساب إليه ، إذا لم أكن ولده ، فابن من أكون ؟ أفضل أن أكون ابن أكبر سكير فى العالم على أن أكون مجهول الأب ، ولئن أعدت شتائم أمي فى حقه ، فلها أن تشتمه ما شاءت لأنها زوجته . أما أنا فالله يغفرلى ولا يسمح لى باقتراف هذا الجرم .

وكنت عندذلك فى الرابعة عشرة من عمرى وقد تعلمت مبادئ القراءة والكتابة عند قسيس القرية الاب جرنجو ارسينكفيز ، فذهبت إليه من الغداة وشكوت له كل شئ ، وقلت له إن والدى يفكر فى بيعنا صفقة واحدة كالمواشى ! فتوسط فى توظيفى عند يهودى يخرج ماله بالفوائد ويعمل بالربا فلم أطق سماع تنهدات البؤساء والبائسات من عملائه وتركته لأدخل فى بنك لبيع الأراضى بالتقسيط وبناء المنازل الصغيرة للمستخدمين ، وقد أتقنت الكتابة والحساب فى ذلك المصرف وتعرفت بكثيرين من رجال المال والأعمال ، فنقلتنى إدارة المصرف إلى مدينة ثيلنا بتركية . وبعد عام ونصف عام كنت أثناءها أبعث بمعظم راتبى إلى أسرتى ، أفلس البنك فجأة وانقطعت مصادرى ومواردى وعجزت عن دفع أجرة غرفتى وظنت صاحبة الدار بى الظنون ، فأغلقت باب الغرفة من الخارج وجعلتنى حبيسا بها ، فلم أذق طعاما ولا شرابا ولم أقض حاجتى . ولما كان سقف الغرفة مصنوعاً من الآجر المرصوف رصفاً بغير بناء فقد تمكنت من الفرار من أعلى الدار بأن خرقت رأسها ! . . . أما الأيام والليالى التى قضيتها بدون طعام ، فلا يمكننى أن أحصر

عددها . وبعد فترة من الزمن اشتغلت بالتمثيل فنجحت نجاحا لم يكن فى حسبانى ، فقدزادنى طول قامتى وحسن هيئتى وارتفاع جبهتى واعتدال أنفى قبولاً عند الرجال والنساء. وكنت أتقن — يالتهكم الأقدار — تمثيل أدوار الملوك والأمراء والزعماء والخطباء والمشوقين. وما زلت أدأب وأنشط وأعمل بثبات وأتقى الوقوع فى شراك النساء ، حتى جمعت ثروة لا بأس بها ، فابديت عذراً إلى مدير الفرقة وعدت إلى وطنى ومسقط رأسى لانقاذ والدتى وإخوتى ولأترك لهم ما جمعت من مال ، ولم أكن أدرى أن يد الزمان لاتنفك تعمل بالتدمير والتخريب فى بيوت الفقراء والمساكين ..

فقد قضى أبى نحبه فى السجن إثر مشاجرة فى حانة ، وسقط جدار قديم على رأس أمى وهى تغسل فى بيت ، وسقط بعض اخواتي فى مهاوى العار ، وتشرد إخوتى فلم أعثر منهم إلا على ولد أبله تركته فى الرابعة من عمره ووجدته فى العاشرة يتسول فى الطرق ، فأنقذته وهو فى آخر رمق وحملته إلى المستشفى ولكنه مات بين يدى . وقد تزوجت إحدى أخواتى بشُرْطى ، ولكنه كان يضربها كل يوم بالجلد الذى يتمنطق به أو بحمائل سيفه إلى أن أورثها الجنون ، فحملها إلى ملجأ المعتوهات

أما البيت الذى كانت تؤوينا إحدى غرفه فقد تهدم — حتى ذكرى بؤسنا لم تبق فى مكانها . فكانت عودتى أليمة بقدر ما رجوت من هناء وفوز على المقادير ، فأدركت أن المنكود منكود وإن توهم السعد !

عندئذ ضاقت الدنيا فى وجهى ، فأردت أولاً أن أحصل على إذن من الحياة ، [1] وأن أبدأ ذلك بتوديع الموتى . فلم أهتدِ إلى قبور والدىّ ، طبعاً . هذا مفهوم ، لأن أبى كان مدفوناً فى قبر مجهول فى جبانة المشنوقين فى شرق مدينة دومسكوي . وكانت أمى ملحودة فى مدافن الفقراء المنبوذين بجوار جبل جراتز الشاهق الذى يقف حداً بين قوتينا وبين مدينة ليتوانيا . فأنى لى أن أهتدى إلى قبرين لحاملين من الفقراء بين عشرات الألوف من قبور الحاملين ؟

فقصدت إلى المدافن وودعتها جميعاً بخطبة وجيزة وكذلك إلى المستشفيات وإلى أماكن الدعارة والسجن ظناً منى أن واحدة من أخواتى أو واحداً من إخوتى لا يزال حياً يرزق ويتألم فى بعض تلك النواحى من جهنم الدنيا وجحيم هذه الحياة . تصور أننى لم أودع أحداً فى بيت أو مدرسة أو أسرة أو مخبز أو طاحونة .. أو حتى مقهى أو فندق ولكن ودعت أرواح أهلى وأشباحهم فى المقابر والمداعر والمستشفيات والسجون . . كان آخر يوم تركت فيه المدينة يوم أحد فقصدت إلى الكنيسة وصليت ، وبعد الصلاة دنوت من كرسى الاعتراف لأعترف ، لأننى ما زلت مسيحياً أرتوذكسياً على المذهب السُّنّى القويم والخطة الكنسية الاغريقية المثلى . ولكننى بدلاً من الاعتراف فاجأت القسيس المتناوم بهذا السؤال :

— قل ياأبتاه لماذا يكافأ الأشرار في هذه الدنيا بخيراتها على شرهم ويجازى الأخيار فى هذه الدنيا بشرورها وسيآتها على خيرهم ؟ قل وأوجز ، فانى أوشك أن أخرج من هذا الدين إن لم أجد

(١) لعله أراد أن يغير خطته فيودع موتاه قبل ذلك .

جواباً شافيا قبل غروب شمس هذا النهار .

فرفع القسيس اللبق عقيرته وأجاب :

— لا تتعجل ياولدى ولا تيأس ، لن أطيل عليك الكلام ولن أعذبك بالثرثرة التى لا طائل وراءها . إن الذى ذكرته مشاهد ومعروف . وهو حقيقة لا خيال ، وأمر واقع لا وهم ولا ضلال . والجواب عليه أنه أمرٌ مجهول السبب ، لا تفسيرله عندنا فى الكتب . ولم يهتد أحد من آباء الكنيسة إلى تعليله تعليلا حسنا يحسن السكوت عليه .

فقلت له: شكراً لك ياسيدى ! أستودعك الله لقد كنت صريحاً معى وهذا يكفينى . وحينئذ أيقنت أنه لا توجد عدالة في العالم مادام الأخيار فى بلاء والأشرار فى هناء والدين عاجز عن تفسير حالهما.

سافرت من المدينة التى قريتى من ضواحيها إلى مدينة أخرى فأنفقت معظم ما ادخرت فى المرح والشراب والطعام ومغازلة بنات الهوى .

وكنت أحياناً أغشى أماكن الدعارة وأختار فتاة فأطعمها وأسقيها وأحسن إليها بصدقة متوهماً أنها إحدى أخواتى الصغيرات . وقد نسيت مرة أن أسأل امرأة عن اسمها فلما قضيت منها حاجتى (واخجلتاه) سألتها عن اسمها قالت : ايزيدورا ، وكان هذا اسم صغرى شقيقاتى فكدت أجن وشرعت فى قتلها . ولكننى قلت لها ما اسم أبيك وأمك وما هى المدينة التى نشأت بها فأجابتنى بسرعة مدهشة إنها تشيكوسلافية من مدينة كراكوف مقاطعة بيلوم، وأيدت قولها بأدلة حاسمة. وهي وشم على خصرها وفخذيها . فأفقت من الجنون الذى أصابنى لحظة وخرجت من بيت المرأة لا ألوى على أحد ولا شئ .

وأصابنى الكسل فى روحى وعقلى فأمسيت خاملاً يائسا . ولم أجد ما أقتات به فى مدينة بريسكابيولونيا الغربية فلم أستطع التسول لحسن هيئتى وقوة بنيتى فبعت ثيابى وارتديت ثياب متشرد من أبناء السبيل وكانت غاية فى الرثاثة . ودخلت على صاحب مصنع فى مكتبه ، وشكوت له سوء حالى وفقرى وبطالتى وعطلى ، وأضفت إلى ذلك أن والدى كان يعرف والده فرق لى وعرض علىّ العمل فى مصنعه وهممتُ أن أقبل ما عرض ولكننى خفت من نظام الحياة التى بدأت أثور عليها وخشيت أن أعمل فتتحسن حالى فأرضى عن الدنيا ومن فيها فأعدل عن سورة الغضب التى غمرتنى . فقلت له إننى قد وفقت إلى عمل سأبدؤه بعد يومين، وسألته أن يقرضنى قرضا حسناً لأصلح من شأنى ريثما أختم أسبوع العمل الأول فأقبض مرتبى وأرد إليه دينه مشكوراً . فصدقنى ودفع لى خمسين كورونا وودعنى وهمس فى أذنى أنه سيضع فى غرفة البواب بدلة ثياب كاملة وحذاء وقبعة أستطيع تسلمها فى المساء فشكرته . وعدت إلى باب المصنع وتقمشت ووضعت ثيابى الممزقة فى مكان أمين، لحاجتى إليها ، وقصدت إلى أقرب حانة فأفرغت جيبي وملأت رأسى واحتلت على المال والطعام والخمر والنساء ، أى أننى احتلت للحصول عليها جميعاً ونجحت . لقد بدأت أنتقم من هذا المجتمع المجرم الذى أصابنى منه الغُصص ونالنى منه البلاء العظيم . لقد فتك المجتمع بأهلى ، وعصف بأسرتي ، وتسلّى على عقل أبى وقلب أمى كما يلهو الطفل بصغار القطط والعصافير فيخنقها وتلفظ أنفاسها وهو يضحك . لقد كان أبى وأمى وإخوتى يموتون جوعاً وفقراً

ومرضاً والمراقص حافلة والمآدب قائمة والملاهى سائرة فى طريقها والمغانى آهلة بالغوانى والفتيان من كل لون ونوع . لقد احتلت واختلست وسرقت ، لا لأجل السرقة ، ولكن لأجل الانتقام . . . على الأقل لمرض الصغيرات التى تخيلت أنهن مولودات للشرف والعفة ولو فى ظلال الفقر والفاقة . وعند ذلك وقف وكيل النيابة العامة وقال :

— هل يرى القاضى العادل أن هذا الكلام يعد دفاعاً عن المتهم . إننى أطلب إسكاته . أرى أنه يهيج نفسية الجماهير من أعماقها ويوغر صدورها على المجتمع المحترم الموقر ...

الجمهور — يغمغم ويهمهم « الحرية ! حرية الدفاع ، لقد أعطاه القاضى حق الكلام فلا يحق لأحد أن يحرمه ! »

المحامي عن المتهم — إن سحب الكلام من المتهم بعد السماح له يبطل الاجراءات ويحتم إعادة المحاكمة ، فهل حضرة النائب على استعداد لسماع ثلاثين شاهداً للاثبات والنفى ومرافعة تطول ثلاثة أيام ؟ ثم لن يكون مناص من أن يؤذن للمتهم فى الكلام من جديد لأنه بنص القانون آخر من يتكلم

القاضى — النظام، استمر أيها المتهم فى دفاعك

المتهم — (يطلب كوبة ماء فيؤتى بها ويشربها دفعة واحدة)

وفى مدينة رومة اتصلت بجمعية سرية اسمها الكاربوناري أو الماقيا لا أذكر الآن. وكانت خطتنا القتل باسم الفضيلة ولكن لا فضيلة هناك ولا شبهها بل القتل لأجل القتل . ولكن بعض المتهورين من أعضاء المافيا أسلموني إلى جمعية « الطراطير السوداء والبراقع المخضبة » وكان مبدأ هؤلاء يدعو للقتل العنيف ، وقد قالوا لى إنهم قتلوا بطريقتهم العنيفة أكثر من مليون إنسان . كنا نعيش معظم الأيام عيشة الفضلاء الأخيار ، ونخادع الناس حتى نستدرجهم ، وكنا نرغم على الزواج وتأسيس العائلات فتزوجت انصياعاً لأمرهم ، ولكننى توعدت امرأتى بالذبح إذا هى حملت . ثم لجأت للعزل والانتفاع بالعقاقير والاصباغ ، حتى إذا حلّ موسم الجفاف ادعيت أنا ورفاق أننا مسافرون فى تجارة تسبقها رحلة بحرية وسفرة برية واجتمعنا عشرات من أشد الرجال بأساً وألفنا عصابات تجتمع سراً وترسم الخطط الدامية . وكنا نرابط فى الطرق حيناً وحيناً فى محطات السكك الحديدية وطوراً فى الفنادق والمطاعم والمراقص وأندية الليل فاذا وقعت لنا فريسة من الأغنياء سطونا عليها وجردناها وفتكنا بها وهتكنا من الأعراض ما هتكنا ونهبنا من المال ما نهبنا ، ثم ذبحنا من استطعنا أن نذبح من الرجال والنساء والأطفال والجند والتجار والممثلات والمرضى والأطباء ، وكنا نسرق ونغتصب فرادى وأزواجاً ، ولكن لا نقتل إلا أفواجاً لأنه أنفى للريبة وأبعد عن الشبهات

النائب — هل يتكرم المتهم بأن يوضح الأسماء والأماكن والتواريخ مساعدة للعدالة وخدمة للفن وإكمالاً للحديث الذى يرويه إذا شاء

المتهم — لا أحب المقاطعة . ولكننى أجيب بأن شرفى لم ينزل إلى درك التجسس على زملائى

الأقدمين ، كما انحط شرف بعض الموظفين

(ضحك وتنهد وشهيق من الجمهور)

وكنا نقتل بالشنق بخيط من حرير أو قطعة رقيقة من القماش المفتول ، وكثيراً ما كنا نضحك ونلهو ونرقص ونحن نزهق أرواحهم ثم نواريهم التراب فى قبر مشترك كقبور الجنود بعد المواقع الكبرى ، هكذا قانون جمعيتنا المحترمة بعد تقاليد الحرب العظمى

القاضى — إنى أقترح على المتهم أن يغير التشبيه إذا شاء ولا أرغمه على شىء فهو حر فى طريقته

المحامى — وأنا أنضم إلى المحكمة فى هذه الرغبة ولذا أرجو شطب الكلام بعد لفظ « مشترك » من محضر الجلسة

المتهم — موافق . كنا لا نعاقب مطلقاً لأننا نبذل كل الجهد فى إخفاء معالم الجرائم ، ولم يكن أحد من الشرطة أو المحققين أو رجال البحوث الجنائية يستطيع أن يلقى القبض علينا ، لأننا كنا مواطنين متمايزين بالشهرة الطيبة والفضيلة ، فاذا حدث أن اعتقل أحدنا خطأ أو نتيجة لمهارة أحد رجال القانون ، فان الجمعية تتآزر تواً فى تخليصه ببذل النفس والنفيس من مال وهدايا ، على أننا لم نكن نقتل لأجل القتل ، ولكن كنا نقتل لأننا نقابل المثل بالمثل ونقتص من المجتمع الذى قضى علينا وعلى أهلينا وأحبابنا . فانه لم يكن يقبل بين ظهرانينا إلا موتور أو مظلوم أو ثاكل أو مخدوع من الرجال أو النساء ممن فقدوا ثقتهم فى العدل والرحمة والوعود العذبة والأمانى المسولة . لقد هدمنا المجتمع ونحن على حسن النية ؛ فبنينا أنفسنا على سوء النية ثم شرعنا نهدمه . لقد كنا أخياراً فحاربنا فصرنا شراراً لنثأر لأنفسنا ، لقد تنمرنا حقناً للدماء الباقية

غير أنى فى نهاية الأمر ضجرت من قتل الأفراد واقتنعت أن الأولى والأفضل والأسرع والأخلق والأليق والألبق أن يكون القتل عاماً فانفلتُّ من روما بعد أن أتقنت الخطابة والكتابة ببضع لغات كالروسية والفرنسية والايطالية . وقصدت إلى بطرسبرج فى عهد القيصر نيقولا الثانى . وكنت أجيد التكلم بكل اللهجات . وقد قيل لى إن تعاليم الفوضي لا تتفق مع العقل وإنما تمشى مع الجنون ، ولا تستعين ببرودة الكهولة وإنما تريد حرارة الشباب ؛ وإن أشد مخاوفها الاحجام وأشد معضلاتها التروى . فهى لذلك تخشى العقلاء ولا تطمئن للرزانة ولا تسكن للمجادلة ، يجب أن يكون خدامها عمياً حتى لا يبصروا ومجانين حتى لا يحجموا ولا يفرقوا ، فهى لذلك لا تقع إلا على ثائر كره الانسانية فأراد أن يطعنها فى قلبها ورأسها ، أو مفلوك يطلب الغنى بعد الفقر . وكنت من الفريق الأول . فلما عشت ردحاً من الزمن فى عاصمة روسيا القديمة اتخذت خليلة من صفوف الثوار اسمها ناديا وكانت امرأة نصفاً تبلغ الثلاثين من عمرها ، وكانت كبنات جنسها تتقن سبع لغات على الأقل فأخذت تذكر لى أسماء رجال لم أسمع بهم من قبل وكانت كهمى فى الخلاعة والتصابى فلهوت بها وأهملت تعاليمها . وكنا نعيش على مائة روبل تدفعها لنا الجمعية السرية « بلافدسكاي

نبراسكا » مشاهرة . وأخيراً ألحقتنى باتباع زينون وكنت أظنه زعيما روسيا خطيراً فاذا به فيلسوف يونانى . وكانت ترغمنى على أن أستظهر بعض النبذ التى تدعى أن حياة الثائر فى روسيا بدونها مستحيلة من ذلك قولها « ليست القوانين نتاج الحكمة من أجدادنا ، وإنما هى وليدة عواطفهم وجبنهم وعصبياتهم واطماعهم ، وإن العلاج الذي نستمده من القوانين لهو شرٌ من الداء الذى تدعى هذه القوانين شفاءنا منه ، فاذا أبطلت هذه القوانين وأقفلت هذه المحاكم وترك الفصل فى النزاعات للمراجيح من الناس ، نشأ عن ذلك العدل الحقيق » أو كقولها « الامتلاك هو السرقة بعينها » . أو هذه النبذة المعقدة الملتوية « إذا رجحت عقول الناس وتهذبت نفوسهم حتى يستطيعوا أن يتبعوا غرائزهم الطبيعية فلا تعود بهم حاجة إلى المحاكم ولا إلى الشرط والمعابد والأديان ، ولا إلى استعمال السكة والنقود وإنما يستعيضون عن الأخيرة بتبادل العوارف والأعطية »

ولكن هذه المذاهب لم تكن تروقنى لأننى لم أفهمها بعقلى وإنما صبوت إليها بقلبى وروحى معتقداً أنها تعينى على الانتقام لأهلى . كان نزع أموال هؤلاء الأغنياء جميعاً وإغراقهم فى بحر من الدماء لا يكفينى فداء لأمى وأبى وإخوتى ، ولا سيما أخواتى البائسات . لقد كانت عاطفة العائلة قوية غاية القوة فى نفسى ، ولهذا أردت أن أتزوج من هذه الثائرة ناديا لتندمج معى أكثر من اندماج الخليلة الايطالية . وفى اليوم الذى صممت فيه على عقد زواجها اكتشفت خيانتها ! فقد كانت تخلو إلى طالب يهودي اسمه عمانوائيل كونسكى يقطن في نفس المنزل الذى كنا نعيش فيه . فلما ظهرت على أمرها كتمته وعدلت عن الزواج بها . وذكرت لها بعد بضعة أيام أننى مسافر إلى الجنوب إلى ناحية أوديسا ، نفاذا لأمر كازميرسكى رئيس الشعبة التاسعة التى أنتمى إليها فقالت لى « على بركة الله أيها الرفيق ! » كأنها كانت تنتظر فراقى بفارغ الصبر ، وهى تعلم أن السفر بين بطرسبرج وأوديسا لا يتم إلا فى ثلاثة أيام وليلتين ، فقلت لها : ألا تعدين لى حقيبة ثياب أو طعاما فى خرج كالأخراج التى يحملها الموجيك ؟ فقالت لى وهي متعجلة وقد زاغ بصرها « يمكنك أن تدبر أمورك بعشرين كوبيك أيها العملاق الثقيل » ووضعت فى جيبى قطعة صغيرة من النقود الفضية فقلت لها وأنا أقبلها نفاقاً وودت لو أمزق وجهها بأنيابى : « لا زاد ولا غطاء ! أترين اننى أموت برداً وجوعاً فى خدمة الانسانية ؟ » فقالت « إن الشعبة التاسعة تعد لك أسباب الراحة ! هيا أسرع فقد حان موعد القطار ! » أيتها الداعر المحرومة من الرجال قبل أن تعرفينى ؛ لقد التقطتك من الطريق وغذيتك من لحمى ودمي وعرق جبينى وخاطرت بالحياة لأجلك . أهكذا أتبيعيننى ببيع السماح لأجل شهوتك الصاخبة . ألست رجلا ؟ أم دأبك التغيير والتبديل كحمارة الوحش التى لا تقنع بقطيع كامل العدد والعدد من الذكور المهتاجة ؟ . هذا كلام العقل الباطن تبادلته ونفسى ، وقد تخيلت كل شيء يحدث فى غيبتى . ثم نطق العقل الواعى قائلا :

حسن ما تقولين ياحبيبتى ناديا . أستودعك الله ! وسارعت بالخروج وطرت على جناح السرعة إلى حى آخر من أحياء العاصمة وقضيت ليلتى فى أحضان امرأة مذنبة . وقبل أن أضطجع إلى جنبها فى الفراش الغريب الذي لم يألفه بدنى صليت صلاة قوية وصلت المرأة المذنبة إلى جانبي راكعة على ركبتيها . فسألتها : إن وجدت زوجاً كريماً يقوم بأودك ويكفيك مؤونة الدعارة أفتسكنين إليه ؟ فأجهشت بالبكاء وقالت : أسكت أيها الرفيق ولا تذكر هذه النعمة المقدسة فى هذا المكان الملعون . إننى كلما أذكر الطهر والعفاف والقناعة أكاد أجن شوقاً إليها .

قلت « فإن وجدته وأحسن إليك وبنى بك تخونينه مع أول قادم؟ فوضعت يدها على فمى، فقلت : وإن فعلت فما تستحقين ؟ قالت : أن يقتلنى وأن أذهب بلا دية ، وأن يباح دمى . فقهقهت حتى أمسكت بجنبى ، وكادت المرأة تظننى مجنونا . لقد حاكمتها أى النائبة على طريقة قومها وبلدها ومذهبها بعد أن صدر الحكم على لسان امرأة من قومها ومن طبقتها ، ولم أطق صبراً ، فأفرغت جيبى فى حجر البائسة المذنبة ، أعنى أعطيتها كل ما كنت أملك ، وقصدت إلى كاتم أسرار الشعبة وزرته فى غسق الليل ، وقلت له: إن الرئيس يطلب مسدساً وذخيرة فقال : أى رئيس ؟ قلت : الرئيس ٩ + ١٤

وكان هذا رمزه الأخفى ، فأعطانى ما أطلب وقصدت إلى بيتى بعد نصف الليل بساعة وصعدت الدرج في الظلام الحالك ، ولم يكن الدفورنيك[1] ليعوقنى . ووضعت أذنى على خرق الباب فسمعت أصواتاً وحركات وتأوهات وهمساً ، فنظرت فرأيت فى ضوء المصباح الكهربائى ما أقنعنى بأن المرأة فى أحضان اليهودى ولمحت لحسن الحظ نافذة مفتوحة فعلمت أن الوصول إليها سهل من السطح فصعدت إليه وصبرت عليهما حتى أخذا نصيبهما من التمة والنوم وهبطت عليهما كالقضاء من النافذة وذبحت العاشق اليهودى من الوريد إلى الوريد كما تذبح الشاة، ثم أيقظت ناديا ووضعت فوهة المسدس فى فمها . فلما رأت دماء معشوقها الطالب المبرى قالت لى : أنت الذى قتلته ؟ قلت نعم . قالت حسناً فعلت . إننى استدرجته لذلك ، فأنا أمقته وأحب أن تفعل به ما فعلت من زمن ولكنى لم أتمكن من اقناعك .. اخلع الآن ملابسك ونم فى حضنى حتى الصباح . قلت : وماذا نفعل بجثته ؟ قالت : أترك الأمر لتدبيرى ، ولكنها لم تنته من حبك تلك الحيلة حتى أفرغت المسدس فى حلقها وغادرت الدار كما دخلتها . وفررت إلى ساراتوف على نهر الفولجا واندسست بين اللاجئين وعاشرت الموجيك فى المولد الكبير فى نيجنى نوفجورود[2] وتعلمت أغانيهم وأنشدت مواليهم وقصائدهم وأدوارهم ، وأتقنت أصواتهم ، وغيرت اسمى وعقيدتى طبعاً وجعلت نفسى من قازان . وذقت أنواع الجوع والخوف والفقر، وكانت أشباح الأحباب والأعداء والقتلى تظهر لى فى نومى وصحوى . وتعلقت بكتاب « بيت الموتى » لحداثة عهده بالنشر ودخلت الكنيسة وتعلقت بالغناء أيام الأحد وأنا كافر بملة القسيس

(١) بواب الدار وجابيها وجاسوسها

(١) بالروسية المدينة الجديدة مشهورة بالموالد والأسواق .

بجلجل صوتى كأحسن ما يكون منشد يترنم بمزامير داود ، ولكن القسيس فاجأنى وأنا أسرق من صندوق النذور فطردونى فخرجت إلى المدينة وأخذت أغنى فى الشوارع فسمعتنى أولجستا نوفا[1] الممثلة المغنية فعشقت صوتى وأحبت جسمى فوهبتنى بدنها وعلمتنى فنها واشترتنى من نفسي ، فصرت معشوقها وسيدها فأظهرتنى على مسرح أوليانوف بيطرسبرج ، وقد رآنى رئيس الشرطة فى دور حلاق اشبيلية «فاشتبه» فى لأنهم كانوا يبحثون عن ذابح ناديا وحبيبها ، فصفعته أولجستا نوفا ، وقالت له أنت مجنون ، يا رتزيف ! هذا أخى فى الرضاع ، إنه لم يغادر قصر أبى فى تسار كوى تسيلو ، فكيف تتهمه بالتشرد والقتل ؟ فقلت لها : عفواً يا أختاه ! لا تصل بك الحماسة فى الدفاع عنى إلى هذه الدرجة ، إننى قاتل هذه المرأة ومعشوقها حقاً . فحدق فى الشرطى ، وفتح فمه لينطق فقلت مقهقهاً : ولكن فى المنام !! ...

وبدون عشق أولجا لم تبتسم لى الدنيا فوصلت إلى مسارح نيويورك وباريس ولندن وميلانو ، ثم عدت إلى روسيا ، وكانت أولجا قد أصيبت بالسل وعجزت عن الغناء ففقدت أنا الآخر صوتى كما حدث لتريلبى عند ما مات سفانجيلى فجأة[2] ، وعدت إلى الفقر ومقاساة الجوع حتى قبلت أن أمثل لقاء رغيفين من الخبز وقطعة من اللحم وقدح من الفودكا . إن التهمة التى وجهت إلى هى أننى نبشت قبر أولجا ستانوفا ، وأخذت بعض حليها التى تزينت بها قبل دفنها . إنها لجريمة كبيرة حقاً ، ولكن لا تنسوا أننى أنا الذى أمرت بدفنها بهذه الجواهر ، وكان يمكننى أن أستحوذ عليها ، لأنه لا قانون فى الأرض ولا فى السماء يحتم على الورثة أن يزينوا صدور الموتى ونحورهم وأصابعهم بالجواهر ، ولكننى فعلت ذلك زهداً فى جواهرها ، وكنت فى أشد الحاجة إليها ...

لقد نسبت الشرطة لى أننى تعديت على جسمها بفعل فاضح ، أفيعقل هذا الزعم ؟ إنها وشاية دنيئة ونميمة قذرة ، ونبأ كاذب متعفن لا يصدر إلا عن قلوب متأكلة بدود الحقد والوقيعة . هل أعتدى على هيكل عظمي وجسد لحقه البلى فى وحدة الليل البهيم ؟ نعم « الهاوية » قصة خيالية ، ولكن الصندوق الخشبي المنعش المغلق اعتبروه خزانة ملأى بالجواهر ، لا سرير عروس معدة للزفاف ، إنى أختنق . أموت . اسمحوا لى بالجلوس لقد انتهيت .

القاضى — إجلس أيها المتهم (يجلس وينثنى عنقه من التعب) أيها المحلفون ! لقد سمعتم دفاع المتهم ، لست فى حاجة إلى تلخيصه ، أو ترجيح إحدى الوجهتين . إن وجهة الاتهام قوية لا ريب ، ولكن المتهم أظهر ضعفها . لا تصغوا إلى القسم الأول من دفاعه . قد يكون اعترافاً خالياً لعقل عصفت به المصائب فانهكت قواه ، وقد يكون مظهراً من مظاهر الجنون الفاجىء . انه بلا ريب رجل نالت منه حوادث الدهر نيلاً كبيراً حتى اختل توازن تفكيره .

إن سجل سوابقه مفقود فلا يمكننا أن نعلم إن كانت قصته صحيحة أو كاذبة . أما الجرائم التى نسبها

---

(١) هذه بريمادونا وسوبر أنوتونيت أثناء الحرب

(٢) Trilby تأليف دي موريه من أروع القصص الحديث

إلى نفسه متطوعاً فقد تكون وقمت ولم تظهر للدلائل للتحايل فى إخفاء معالمها . كما يمكن الافتراض بأنها لم تقع إلا فى دائرة ذهنه المريض فلا تتخذوا منها سنداً عندما تنسحبون إلى غرفة المداولة . لا تسمعوا صوتاً سوى صوت ضمائركم . ولا تذكروا إلا تهمة واحدة وهى التى يحاكم من أجلها هذا المتهم . هل نبش قبر صديقته أو لجاستانوفا ليسرق جواهرها أو ليعتدي على حرمة الموتى؟ إن كانت الجريمة لسرقة الجواهر فالجواب على الأسئلة جميعها بالنفى ، وإن كانت غايته انتهاك حرمة المقابر فالجواب على الأسئلة الأساسية بالاثبات . الله يعينكم

رئيس المحلفين — لسنا فى حاجة إلى المداولة . جوابنا على جميع الأسئلة بالنفى

القاضى — حكمت المحكمة ببراءة المتهم والافراج عنه فوراً ، إن لم يكن محبوساً لسبب آخر

الجمهور — ليحى العدل ! الرحمة فوق العدل ! يسقط الظالمون .. المجتمع يحتج. ليسقط الشرطة.. اليهود .

القاضى — (يا حارس ! اطلق سراح المتهم) وأخل قاعة الجلسة من جميع النظارة !

الحارس — ازيدور فيدوروف، انهض تيقظ! لقد حكم القاضى ببراءتك (يلمسه بلطف ثم يهزه بعنف ثم ينظر فى وجهه ويجس يده وصدره) إن المتهم لا يتحرك . لقد فارق الحياة وهذا الزبد فى شدقيه

القاضى — (يرفع قبعته وينهض) رفعت الجلسة وانتهت القضية !!

الجمهور — (يرتل : أيها الرب الرحيم تقبل روحه فى ملكوت سماواتك فقد كان أعدل من كثير من الكبراء) .

محمد لطفى جمعة

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

اطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى : الحاج شلبى . الاطلال
أبو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله
الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء
القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

«كتاب فرعون الصغير وقصص أخرى»

يظهر في نهاية العام

ثروة لم تخطر على بال

للكاتب الإيطالي بوكاتشو
للأستاذ محمد كامل حجاج

لقد أجمعت الآراء على أن البلاد الواقعة على شاطئ البحر من ريجيو إلى جايتي هي أجمل البلاد موقعاً في إيطاليا . وهناك على مقربة من سالرن عراء تطلق عليه الأهالي اسم شاطئ مالفي وبه مدن صغيرة وحدائق وبحار، وكانت مدينة رافللو في ذاك العهد أبرزها رشاقة وازدهارا ، وكان بها رجل يسمى لاندولف من كبار الأغنياء ولكن نهم المال لا يشبع ولا يقنع ، إذ أراد هذا الرجل أن ينمي ثروته فقضى طمعه على جميع ما ملكت يداه

وبعد ما فكر في الأمر طويلاً كعادة التجار اشترى سفينة عظيمة وشحنها بمختلف البضائع وسافر إلى قبرص . وحينما وصل إليها وجد كثيراً من السفن مشحونة بنفس البضائع التي جلبها فاضطر أن يبيع شحنته بأبخس الأثمان؛ فتملكه هم شديد لهذه الخسارة الفادحة التي ذهبت بغناه وصمم على الانتحار أو الاستعاضة عما فقده بواسطة شخص آخر فلا يرجع إلى بلده على تلك الحال بعد أن خرج منها غنياً محترماً . وباع سفينته واشترى بثمنها والمبلغ الضئيل الذي باع به بضائعه مركباً خفيفاً يصلح لأعمال القرصنة وسلحه جيداً واختار له بعض الرجال الأشداء وطفق يجوب البحار ويسطو على كل ما يصيبه ولا سيما الأتراك حتى زادت ثروته وفاقت ما كان يملكه وقت ازدهار أمواله

رأى أن غناه أصبح كافياً وأنه في حاجة إلى عيش شريف محبوب لا يحتاج إلى تعرض جديد للبؤس وتقلبات الأيام . وعزم على الرجوع إلى بلده والاكتفاء بما غنمه لأن ما حاق به من صروف الدهر جعله يخشى العودة إلى أعماله السابقة . فسافر إلى رافلو بهذا المركب الخفيف ، ولما ابتعد عن الشاطئ هبت رياح عنيفة فهاجت الأمواج ورأى لاندولف أن سفينته الصغيرة لا تستطيع مقاومة اللجج الهائجة فعزم على الاتجاه إلى جزيرة صغيرة . وبعد لحظة أقبلت سفينتان جنويتان لتحتميا في هذا الموضع من الجزيرة وكانتا آتيتين من الآستانة . وقد علم الركاب أن هذه السفينة الصغيرة يملكها لاندولف وكانوا يسمعون أنه من الأغنياء المولعين بالذهب والسطو على مال الغير فاتفقوا على مهاجمته وسدوا عليه المسالك أولاً ثم أنزلوا عدداً من رجالهم إلى البر وبأيديهم قسيهم وسهامهم وتخيروا لهم مكاناً يمكنهم من إصابة كل من يخرج من السفينة . ثم هب الباقي إلى القوارب وذهبوا إلى سفينة لاندولف وأسروها بدون مقاومة ثم نهبوا جميع ما فيها وأغرقوها واعتقلوا لاندولف في قاع مركب من مراكبهم ولم يتركوا عليه غير بعض ثياب خلقة . وفي الصباح تحسن الجو فسافر الجنويون إلى بوتان وسارت مراكبهم بكل اطمئنان طول النهار . وحينما أقبل الليل هاجت رياح عنيفة، واضطرب اليم فانفصل المركبان بعضهما عن بعض وارتطم أحدهما الذي يقل لاندولف في صخور جزيرة سيفالوني فتحطم كالزجاجة وافترس اليم مختلف البضائع والصناديق وحطام السفن ، وطفق الملاحون يسبحون ويجالدون اللجج الهائجة في الظلام الحالك ويتمسكون بكل ما يصادفهم لينجوا بأنفسهم

وأما لاندولف التعس الذي كان بالأمس يتمنى الموت لفقد ثروته فقد تملكه الخوف حينما رأى

نفسه مشرفاً على الهلاك ، ولحسن حظه صادف لوحاً من الخشب فتمسك به إلى أن ييسر الله له من ينتشله من الخطر

ظلت الأمواج تتقاذفه ذات اليمين وذات اليسار إلى أن طلع النهار فنظر إلى ما حوله فرأى صندوقاً صغيراً عائماً فحاول الوصول إليه ولكن هبت زوبعة ضاعفت عنف الأمواج وقذفت الصندوق حتى اصطدم باللوح الذى بين يدى الغريق فأفلت من يده وغاص لاندولف من قوة الصدمة ، ثم طفا وشاهد اللوح بعيداً عنه ولكنه لمح الصندوق على مقربة منه فسبح حتى أمسك به وامتد على غطائه، وطفق يستعمل ذراعيه بدلا من المجاذيف،وأخذت تطوح به اللجج فى كل صوب دون طعام، وقضى نهاره وليله على تلك الحال المضنية دون أن يعرف إن كان قريباً أو بعيداً عن البر لأنه ما كان يرى غير الماء والسماء..

وفي الغد طوحت به الرياح أو على الأصح إرادة الله السامية إلى جزيرة جولف ، وأصبح جسمه كالإسفنج وهو متكئ على الصندوق كما يفعل الغرقي عند إشرافهم على الهلاك

وكانت فى تلك الآونة امرأة فقيرة تغسل آنيتها على الشاطئ فذعرت لرؤيته على تلك الحال وصرخت صراخاً عنيفاً . وكان لاندولف منهوك القوى حتى أنه لم يستطع النطق بكلمة . ولما اقترب الصندوق من الشاطئ وتأملت فيه المرأة ميزت شكل الصندوق ولمحت وجه الغريق فتأثرت بعاطفة الشفقة والحنان ونزلت بقرب الشاطئ وكان البحر هادئاً وأمسكت لاندولف من شعر رأسه وجرته هو والصندوق إلى الشاطىء ونزعت يديه المتشنجتين من الصندوق بقوة ثم وضعت الصندوق على رأس فتاة كانت معها ثم حملت لاندولف على ظهرها كالطفل وذهبت به إلى المدينة ثم أدخلته فى حمام حار وغسلته ودلكته بالماء الساخن إلى أن أفاق وتحرك ، وبعد إخراجه من الحمام سقته نبيذاً وأطعمته قليلاً من المرق حتى انتعش وعاد إليه رشده . رأت هذه السيدة أن ترد إليه صندوقه وأن تشجعه على ما أصابه من المحن

ولو أن لاندولف لم يفكر قط فى الصندوق إلا أنه ظن أن يجد فيه شيئاً يستعين به على القوت بضعة أيام . ولما أراد أن يفتحه وجده خفيفاً جداً فتملكه اليأس والقنوط ، ثم فتحه بفارغ الصبر تطلعاً لما يحتويه، وكانت السيدة قدغادرت بيتهالقضاء حاجاتها ، فوجد فيه كمية من الأحجار الكريمة بعضها مبرى والآخر كما هو ، ولسابق معرفته بالجواهر تحقق أنها ذات قيمة كبيرة ، حمد ربه على هذه النعمة العظيمة ومجده ، لأنه قد حرسه بعين عنايته وعوضه أضعاف ما فقد . وتشجع ونشط ونسى همومه ، وعزم على أن يتصرف بكل رزانة وحكمة ليصل إلى بيته آمناً مطمئناً ولا يكون عرضة لمصاب جديد أو محنة غير منتظرة. ثم صر جواهره فى قطعة من النسيج وعرض على السيدة أن تأخذ الصندوق مقابل كيس، فلبت طلبه ثم شكر لها حسن صنيعها ووضع كيسه على كتفه وسافر فى مركب . ولما وصل إلى برنديس انتقل إلى ترانى وصادف هناك عدة رجال من بلده وكانوا من تجار القز والديباج فقص عليهم ما أصابه ، ولكنه لم يبح بالصندوق وما حواه فأعطوه حلة وأعاروه جواداً وبحثوا له عن رفقاء يصحبونه فى سفره إلى راقللو

ولما آب إلى بلده عاين جواهره فوجد فيها كثيراً من الماس الجيد بحيث أنها إذا بيعت بثمن معقول كانت قيمتها تساوى ضعف ثروته حينمافارق بلده . ثم أرسل مبلغاً من المال إلى السيدة التى انتشلته من اليم فى مدينة جولف وكافأ تجار الحرير الذين ساعدوه فى ترانى وعاش بقية عمره عيشة هنيئة شريفة

محمد فاضل صباغ

الحب فوق الجبل

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت مارى تستطيع فى يسر أن تسمع الحديث بين الشابين الجالسين على مقربة منها إلى منضدة فى فندق بشارع « فليت ستريت » ولكنها لم تعر أحدهما التفاتاً خاصاً

قال أكبرهما وهو أجلهما للآخر : « إذا كنت لم تذهب قبل الآن إلى اسكوتلاندا فاطلب أجازة واذهب إليها . وقد يشكو بعض المتقدمين فى السن وضعاف الأبدان من شدة البرد فيها ، ولكن هذا لا يمنع من وصف جوها بأنه جميل

« وسأدلك على مكان بين الجبال ليس أطيب من هوائه ولا أروع من مناظره ولا أوفر من حاجياته مع يسر الثمن ، ولا أجمع لأسباب الراحة والسرور وقد طال ترادى عليه وآمل أن أذهب إليه أيضاً فى الخريف »

ورأت مارى المستمع يشير بالموافقة ويقول : « لست أعرف هل أتمكن من الذهاب إليها أم لا ، ولكنى أريد أن أسألك عن بعض التفاصيل ، وأنت تعرف أنى لا أحب النزول بالفنادق فهل من الممكن إقامة كوخ هناك خارج القرية؟ »

فأجابه : « ذلك سهل . وسأدلك على نفس الكوخ الذى كنت أقيم به ، وهو فى جبهة برتشاير الغربية فاكتب إلى مسز « ماك بين » وقل لها إنك أخذت العنوان من جارفى بلير »

ولم يكن المستمع يعرف الجهة التى ذكرها جارفى بلير . ولكن مارى عرفتها ، وكتبت على ظهر مجلة كانت معها ذلك العنوان. ولم يخطر ببالها أنها أخطأت فى ذلك لأنها كانت تريد الاصطياف أيضاً ، وكانت اسكوتلاندا حلماً من أروع أحلامها . ولكنها لم تكن تعرف أحداً هناك ، وليس أجدر بإرشادها إليها من هذا الرجل الأسود الشعر والعينين الذى كانت تراه كل يوم على هذه المنضدة بالفندق وإن كانت إلى اليوم لم تبادله كلمة واحدة ، على أنهما كانا يتبادلان النظرات فى كثير من الأحيان

وفى تلك اللحظة كتبت مارى خطاباً رقيقاً إلى مسز « ماك بين » قالت فيه إنها سمعت اسمها وعنوانها مصادفة وأنها ترجو أن تسمح لها بالاقامة فى الكوخ مدة أسبوعين وتسألها عن شروطها فى مقابل ذلك

وفى اليوم الثالث وصل إليها الرد . وكان مرضياً وفيه تطلب مرسلته تحديد اليوم والساعة لترسل إليها العربة تنتظرها وأمتعتها عند أقرب محطة لتنقلها إلى الكوخ الذى يبعد عن المحطة ثلاثة أميال

وتم كل ذلك. وفى ليلة هادئة الجو ممطرة النسيم كانت مارى واقفة أمام الكوخ وصاحبته مارجريت ماك بين ترحب بها ترحاب الصديق بالصديق

قالت مارجريت : « أخشى أن يكون هذا المكان موحشاً لشدة هدوئه وخلوه من الأنيس ، ولكنه يوافق اشتراطك فى خطابك ، وليس عمل يمكن أن يعمل هنا إلا المشى على سطح الجبال المزدانة بأعواد الزهر »

فابتسمت مارى وقالت : « إنها تألف هذه المناظر وتحبها فقد اعتادت الاصطياف فى الريف وإنها لا تنتظر أن تسبب لها هدأة الحياة شيئاً من السأم

وكان من حسن حظها أن الجو اعتدل وراق

فى الأيام الأولى من زيارتها لهذا المصيف . وفى يوم من الأيام قالت « مارجريت ماك بين » : « إنه فى المساء سيأتى مصطاف جديد وسيقيم فى غرفة أخرى من ذلك الكوخ »

وقالت : « فاذا راقك مجلسه بعد التعرف به قدمت لكما الطعام معاً وإلا فانى سأدبر لذلك وسيلة تريحك »

فلم تبد مارى أي اعتراض بل سرت من وجود زميل من أهل بلدتها فى هذا المصيف . وفى أصيل ذلك اليوم خرجت لتتنزه على سفح الجبل فى طريق المحطة وهى تعد نفسها بأن تكون نزهة الغد برفقة رجل هى إلى اليوم لم تصاحبه . وفيما هى تملل النفس بوعد جميل زلت بها القدم عند محاولتها الصعود إلى مرتفع من سفح الجبل فهوت وجرحت ركبتاها واستحال عليها النهوض ، ورأت رجلاً يسلك الطريق بين المحطة وبين الكوخ

ولما دنا عرفت فيه صاحبها أسود الشعر والعينين « جارفى بلير » . ونظر إليها وكاد أن يمشى دون أن يتكلم لو لا أنها استوقفته وأخبرته بالخبر ، وطلبت إليه أن يبلغ صاحبة الكوخ رجاءها لترسل إليها عربة تقلها . فقال : إن الكوخ قريب فاذا شئت فلنذهب إليه مستندة إلى ذارعى . وفى بحمد الله من القوة فوق ما قد تظنين

قبلت مارى على خجل ما طلبه إليها . وكان لا بد لهما من التحدث فى أثناء الطريق فاعترفت له بأنها عرفت المكان من حديثه مع صاحبه . وقال لها : إنه كان يريد أن يأتى فى الخريف ولكن طرأ ما دعاه إلى التعجل

وقالت : « أرجو ألا يغضبك انتفاعى بعنوان كنت أنت تمليه على آخر » فقال : « كيف أغضب؟ لا بل يسرنى كل السرور أن تشهدى صدق النصيحة التى قدمتها لصديقى وأرجو ألا تضطرك الإصابة الحاضرة إلى لزوم الكوخ باقى مدة الاصطياف »

وفى اليوم التالى كانا واقفين أمام الغدير يتحادثان فقالت : « ما أجمل هذا المنظر ! »

قال : « إننى لو أوتيت ثروة لحققت حلماً طالما كنت أنعش نفسى بتصوره وهو أن أشترى كوخاً فى مثل هذا المكان فأقضى فيه ستة أشهر من كل عام » . قالت : « أهذا حلمك ؟ » فقال : « نعم ولى حلم مرتبط به » . قالت : « أتخبرنى ما هو ؟ »

فقال : « منذ عام رأيت فتاة فأحببتها وأريدها زوجة ولكنى لا أملك ما أسديه إليها غير حبى »

فتشجعت الفتاة أكثر مما كانت وقالت : « ربما كانت الفتاة لا تطمع فى غير الحب »

ثم قالت : « هل أرشدتها إلى هذا المكان الذى أرشدت إليه صديقك ؟ » فابتسم وقال : « إننى لم أكن كلمتها على الرغم من أنى كنت أراها كل يوم . وقد انتهزت جلوس صديق معى فرصة لأذكر المكان بصوت عال على مسمع منها . وكنت أعلم أنها تريد الاصطياف »

فاحمر وجه مارى وقالت : « ربما كان عند صاحبتك مثل الذى عندك ، وربما سبقتك إلى الكوخ طمعاً فى لقائك »

وعادا إلى الكوخ . وبعد ذلك اليوم اشتد قلق « مارجريت ماك بين » بسبب التصاقهما لزاماً ، ولكن قلقها عاد سروراً حين أعلناها أنهما يريدان البقاء بالكوخ شهراً آخر هو شهر العسل

عبد اللطيف النشار

شهادة الصلاحية للزواج

للكاتب الفرنسي بول بورجيه

بقلم الأديب عبد الله الرياشي

قال أحد المدعوين بمناسبة طلاق مشؤوم : يجب الحصول على شهادة صلاحية للزواج ... فقد عرفت فتاة كانت زهرة يانعة رطيبة الغصن باهرة الجمال لوثها زوجها بشكل مروع منذ ليلة زفافها إليه . فقال الطبيب س ... عند ما سمع ذلك :

— لقد كثر فعلاً حديث الناس عن هذه الشهادة ، وثار الرأى العام ، وبدأ بعض النواب فى التفكير فيها . وفى مثل هذه الحال التى تتكلم عنها يميل الانسان إلى الاعتقاد بأن التشريع الذى يقضى بوجوب الحصول عليها قبل الزواج يكون تشريعاً مفيداً . أما إذا فكر الانسان فى المسألة فانها لاتبدو بهذه السهولة . فكم تثير من المشاكل ! ثم هناك الصعوبة التي يجدها الطبيب فى تسع حالات من عشر فى تشخيصها تشخيصاً علمياً أكيداً . لم يبق إلا الحال العاشرة التى ضربت لنا مثلا منها ، ولكن ما العمل فى التسع الأخرى...! وإننى لأسائل نفسى كم من زواج موفق قد يصير امتناعه بناء على دلائل خداعة لأمراض لن تظهر ألبتة . وكم من القلوب الفتية المتوثبة تتمزق وتسحق بناء على قرار أساسه نظرية قد يظهر فسادها فيما بعد ! وهذا بخلاف الأحوال التى يستعمل فيها الغش والتزوير . اسمعوا هذه الحادثة التى ما زالت ذكراها راسخة فى ذهنى فقد كانت من الحوادث التى أثارت حزنى وألمى وفى نفس الوقت كانت عزائي فى مهنتى . ولايدهشكم هذان التعبيران المتناقضان لأنكم ستوافقوننى متى انتهيت من سرد قصتى

كان فى المستشفى المتنقل الذى كنت أعمل فيه أثناء الحرب فى الريف امرأتان هما أم وابنتها سأدعوهما إذا شئتم السيدة لور والآنسة لوز ؛ وكانت كل منهما مثالاً عالياً للتفانى فى العمل والنشاط والاخلاص

إن تعلق الطبيب بمساعديه هو إحدى العواطف التى يخلقها الاشتراك فى العمل ، وهى عاطفة لا نجد لها مثيلاً فى المهن الأخري، وتستمر إلى مابعد انتهاء العمل معاً ، ولكننا معشر الأطباء عند ما نؤوب إلي عياداتنا لايترك لنا مرضانا الوقت الكافى لتبادل المكاتبات ، فانى عند ما عدت إلى باريس انقطعت عن مراسلة هاتين المرضتين النشيطتين . وكانتا تقطنان بإحدى مدن الجنوب حيث كان زوج السيدة لور يتعاطى أعمال المصارف . ولكن سكوت رجال الأعمال لايتخذ دليلاً على النسيان، إذ أن هذا ماشعرت به عند مارأيت ذات يوم السيدة لور تدخل مكتبي أثناء عيادتى للمرضى فقلت لها :

— آه ! أهذه أنت فى عيادتى ! أنا الذى مازال ضميرى يؤنبنى منذ حضورى إلى هنا لأننى لم أجب على خطاب واحد من خطاباتك العديدة ! يسرنى أن أنتهز الفرصة لتقديم اعتذارى لولا أننى ألاحظ أنك جئت فى طلب استشارتى ...

— لك كل العذر يا سيدى الطبيب فإن وقتك أثمن من أن تضيعه . ومع ذلك فقد جئت أسألك

(*) فى الأصل الفرنسى « شهادة ما قبل الزواج » "Certificat Prémuptial"

منحي بعض هـذا الوقت ليس لنفسى لأننى لست مريضة ولكن لابنتى

— هل الآنسة لوز مريضة فى باريس ؟

— لا يا سيدى الطبيب ولكنها ستتزوج أو على الأقل طلبها شاب يعجبها جداً للزواج وهو شاب نبيه وظريف للغاية عيّن منذ سنة فى مدينتنا مهندساً للطرق والجسور . وقد طلبت وزوجى مهلة سنة لتبليغه ردنا إذ نريد وضع بعض الشروط قبل موافقتنا، لأن هذا الشاب خاض غمار الحرب بكل شجاعة وأصابته الغازات السامة تحت أسوار فردان . ولما كنت عرفت أثناء اشتغالى بالتمريض ومنك شخصياً أن أكبر أضرار هذه الغازات هو تعريض ضحاياها لعطب الرئات، ولما كان والدا لوسيان — وهو اسم الشاب — قد توفيا بذات الصدر فلا نقدر بل يجب ألا نزوج لوز بشاب مصدور ؛ وحينئذ ...

فقاطعتها قائلاً : وحينئذ خطر لكم أن تفحصوا عن مرض هذا الشاب بواسطة طبيب

— نعم يا سيدي الطبيب . لقد عرفت فكرى

— وقد وقع اختياركم علىّ

— هذا طبعىّ فقد طالما رأينا منك العناية بأمرنا والميل إلينا ، ثم شاهدنا دقة استدلالك على مواضع الداء

— لقد عزب عن ذهنك يا سيدتى مسؤولية الطبيب وواجبه الصارم نحو سر المهنة . من منا لم ير بائساً كان يعالج فيه قروحاً مخجلة ومعدية تزوج فتاة طاهرة جميلة ومنعه واجبه من الكلام، بينما كان من السهل منع حدوث هذه الجريمة بكلمة واحدة. فإذا فحصت عن داء السيد لوسيان ووجدته مصاباً بالداء الذى تخشين فإن واجبي يمنعنى من أن أبوح لك به

— أوافقك على ذلك ولكن ألا تبوح به له هو؟

— إننى لا أفهم غرضك

— إذا حتمت عليه أن يأتي إليك وأن يربى هو نفسه بعدئذ الشهادة فهل تعدّ ذلك من جهتك إخلالا بسر المهنة ؟

— طبعا لا . لأن من حق المريض أن يعرف حقيقة حاله، وللطبيب أن يرى إذا كانت هذه الحقيقة تفيد أو تضر بصحة هذا العليل الذى له أن يستعمل هذا التصريح الاستعمال الذى يلائمه

— وهل ترى ضررا فى إظهار الحقيقة للمصدور!

— على العكس فهى مفيدة له إذا كان المرض فى مبدئه . وبما أنك تشكين فى حالة هذا الشاب فيفهم من ذلك أن إصابته ما زالت طفيفة . ولكن فكرى مليا فى الأمر ! إذا طلبت منه أن يستشيرنى فمن المحتمل جدا أن يرفض محافظة على كرامته . ثم إذا كانت الآنسة لوز تحبه ...

فقاطعتنى بحدة قائلة :

— إذا رفض لهذا السبب فهذا دليل على أنه لا يحبها ، وإذا كان لذلك فيكون طبيبه قد حذّره فنصبح نحن على بينة من أمره .

ثم وقفت منعا لابداء أى اعتراض جديد وقالت سنعود إلى بيتنا مساء اليوم . زوجى وأنا . لأننا لم نحضر إلى باريس إلا لهذا السبب ، وغدا سأكلم لوسيان وسأنبئك ببرقية، وإذا قبل فسيكون عندك بعد الغد ... ولكنه سيقبل ...

ودعتُ السيدة لور وعدت إلى مكتبى وأنا أسائل نفسى : « هل يقبل؟» ومع ذلك فان موقعة

ثردان كانت فى الوقت الذى كانت تستعمل فيه غازات البثور فلم تتعد الاصابات الرئوية ٨ ٪. أما فى سنتى ١٩١٥ و ١٩١٦ فى عهد غاز الكلور فقد بلغت ٢١ ٪. إذن فالأمل كبير فى ألا يكون ثمة ما يخشاه هذا الشاب من النتائج الوخيمة . إلا إذا كان للوراثة تأثير ! . . ولكن عزة نفسه تأبى عليه أن يقبل ولو كان سليما . . . بل خصوصا إذا كان سليما لأنه يعرف ولاشك مايخشون عليه منه فى المستقبل ، وإرغامه على استشارة طبيب لا يعرفه اتهام له بأنه لم يستشر طبيبه الخاص قبل أن يتقدم بطلب الزواج، وهذا يعد غشا صريحا من جهته . لا ! إنه لن يقبل ولن أتحمل مسؤولية ادخال الحزن على قلب لويز الظريفة . إن نظرات هذه الطفلة وطول تفرسها لدليلان على عمق مشاعرها ورقة عاطفتها . وبما أنها تحب لوسيان هذا ...

وتمثلت الشابة الصغيرة فى مخيلتى وأنا أردد هذه الأفكار فى خاطرى كأنها ما زالت أمامى فى بهو المستشفى حيث كنت أعجب بها كثيرا وأنا أشاهد نشاطها ورزانتها وهى تنحنى على سرير أحد مرضاى لتضميد جراحه . إن حركات وسكنات الممرضة أثناء تأدية هذه الأعمال التى تمجها النفس أحيانا ولكن تتطلب دائما الكثير من الدقة والعناية تكون دلائل واضحة للطبيب الذى يرتبط تفكيره بهذه الأيدى النسائية التى تتكشف له منها طبيعتها الحقيقة كاملة

سترون أننى لم أخطئ عند ما عددت هذه البنية فى عداد بعض النفوس النادرة التى تستولى عليها العاطفة وتأسرها وإذا ما وهبت نفسها وهبتها إلى الأبد وبدون رجعى (١)

ستدركون بعد أن رأيتم انشغال فكرى بها إلى هذا الحد مقدار حيرتى واضطرابى عندما تسلمت فى اليوم التالى برقية من أمها هاكم نصها :

« لوسيان قد قبل . سيكون عندك غداً . شكراً جزيلاً »

وقبل انقضاء أربع وعشرين ساعة دخل إلى مكتبى خاطب لويز . ستعلمون مبلغ دهشى بعد الذى حدثتكم عن ميلى وإعجابى بهذه البنية الظريفة الرقيقة الاحساس عندما وقع نظرى على الذى تحبه لدرجة التدله كما أخبرتنى والدتها إذ لم ألمح فيه أى صفة أو سيماء تبرر أو تفسر مثل هذه العاطفة الجامحة . فوجهه المستدير الضخم الذى يبسم لكل شىء يدل على أنه ولد طيب ، ولكن عادى بشكل ظاهر . وقد لاحظت أنه متهيب ويخفى ما به من الاضطراب تحت ستار من المرح الذى كان طبيعياً فيه ولاشك . كنت أقرأ اضطرابه مسطراً وراء جفنيه، ثم تبادر إلى ذهنى أن شجاعته التى يدل عليها الشريط المثبت فى عروته هى التى سحرت خطيبته المقبلة . وبمجرد النظر إليه يترجح أنه لا يخشى عليه من التدرن الرئوى . ثم إن الفحص الذى شرعت فيه ، وأنا أقل ما أكون رغبة فى العثور على دليل يثير ريبتى أثبت لى أن نظرتى الأولى كانت صادقة فوقعت بامضائى على شهادة الصحة التامة التى حتم والد لويز عليه إحضارها . وقلت أخاطب نفسى بينما كنت أرافقه مودعاً وأنا أوشك أن أغضب من كثرة ما أبدى لي من الشكر : « وهذه أيضاً إحدى نتائج الحرب المحزنة . الاندفاع الوهمى الذى يساور الناس فى الشبان الذين خاضوا غمارها ، ثم إذا عادوا إلى الحياة العامة كانوا أناساً أقل من

(١) الرجعى والرجعة والرجوع والمرجع من رجع يرجع

العاديين ، وكثيراً من الأحيان متوحشين تظن الفتاة الخيالية أنها ستتزوج فارساً كريماً وإذا بفارسها هذا عامى خشن كما يظهر لى هذا الشاب . ما أعظم الصدمة عندما تتكشف الحقيقة للوز الصغيرة إلا إذا كنت قد أخطأت فى حقيقة نفسيتها وكانت فى الحياة العامة غيرها فى المستشفى كما يدل عليه هذا الاختيار أكبر دلالة

ولكن لا ! فان نظرتى كرئيس عيادة لم تخدعنى وقد ألفت إحدى الصدف التى تحدث يومياً للطبيب بالدليل القاطع . وبهذه المناسبة ما هى الصدفة ؟ هى وقوع ظروف وحوادث لم يكن فى الامكان التنبؤ بحدوثها . وبالفعل أى طبيب يمكنه أن يتنبأ بأن المريض الفلانى الذى لم يكن له به سابق معرفة سيستدعيه ، وأن دعوته هذه ستكون سبباً فى وقوع حوادث غير منتظرة ، إذ لم تمض فترة كبيرة على عيادتى لضحية غازات فردان حتى كنت قد استلمت برقية من السيدة لور تخبرنى فيها بمزيد السرور بخطبة الشابين . ثم تلا البرقية كتاب بطفح غبطة وحبوراً تبدي لى فيه أسفها لأن الزواج الذى سيتم قريباً جداً بناء على إلحاح ابنتها كما قالت لم يحدد له يوم يلائمنى ، وإلا كانت رجتنى فى أن أكون أحد الشهود ، وإنها تعلم أن كثرة أشغالى لاتتحمل بضعة أيام أتغيبها عن مرضاى وعن مستشفاى . وكانت تسكن على بعد عشر ساعات بالسكة الحديدية من باريس . وها كم الصادفة التي كنت أكلمكم عنها

دعانى بعد بضعة أيام زميلان لى من تلك الجهة للتشاور فى قصر قريب من مدينتها ، فحددت أقرب يوم سبت للمشاورة المطلوبة رغبة منى فى زيارة ممرضتى السابقتين فى يوم الأحد لأستطيع العودة إلى أداء واجبى فى المستشفى فى يوم الاثنين بعد تمضية الليل مسافراً فى القطار فقد اعتدت بحكم المهنة النوم فى أى ظرف وجدت فيه . وكنت أشعر برغبة شديدة تحفزنى إلى رؤية مقر أعمالى أثناء الحرب . ولما كنت دائماً ميالا كما يقول ستاند هول إلى «معرفة كنه الشىء على حقيقته» فقد كنت تواقاً إلى معرفة صلة لوز بخطيبها الذى لم أكن أراه جديراً بها ، واشتدت بى الرغبة حتى أننى بدل أن أنام فى القصر حيث أراد أصحابه أن يحجزونى طلبت أن يقودونى بالسيارة بعد الاستشارة مباشرة إلى مدينة ممرضتى الظريفة النشيطة التى كانت تعد نفسها للارتباط إلى الأبد بهذا الرجل الخشن الذى أثار كراهيتى إلى هذه الدرجة فوصلت فى الساعة السادسة ومن المنزل اتصلت تليفونياً بالسيدة لور فى الحال ولحسن الحظ وجدتها فقالت لى :

— كيف لم تنبئنى بحضورك يا سيدى الطبيب؟ إن عملك هذا سيئ بل سيئ جداً ولكننى أسامحك إذا أتيت فى الساعة الثامنة لتناول العشاء مع الخطيبين وبعض الأصدقاء ؛ ولا بأس من حضورك بملابس السفر طبعاً ، غير أننى أرجوك أن تبكر قليلا عن الموعد لأن ابنتى تشعر بانحطاط وأظن أن كثرة العمل قد أنهكتها ولذا أرغب فى أن أعرف رأيك. فقلت لنفسى : « أبدأت الغمامة تنقشع عن بصرها؟ ومع ذلك فما زال أمامها متسع من الوقت » وثار فضولى وتنبهت غريزة التطلع فىّ عند ما أدخلنى الخادم فى غرفة الاستقبال التى كنت أعرفها من قبل كل المعرفة إذ كثر ما جئت وقتذاك لزيارة ممرضتى المفضلتين كلما سمح لى الوقت بين عيادة وأخرى . وقوة الملاحظة التى يمتاز بها الطبيب

شديدة جداً عندى ؛ ففى بضع الدقائق التى مكثت فيها وحدى لاحظت وجود مسند تصوير عليه صورة بالفحم لم أكن أعرفها . والصورة جانبية لفتى تبدو عليه بشكل غريب سيماء النباهة وعزة النفس؛ وكنت أعرف أن للويز بعض الالمام بأصول الرسم، وقد دلنى توقيعها تحت الصورة على أنها من صنعها فوقفت مشدوهاً من إتقانها ودقتها مع أن البرهان كان أمامى . ثم قطع علىّ تأملى صوت السيدة لور إذ دخلت وكانت ابنتها بالطبع معها وقالت لى هذه الكلمات التى لم أفقه معناها والذى فهمته بعد قليل وربما كان الاستفهام عنها ذا عواقب وخيمة « ألا تشبهه تماماً ؟ مع أنها لم تصنعها إلا فى ثلاث جلسات ؟ ... ولكن ما بك يا ابنتى ! ... »

وكانت لويز قد وقعت فجأة على أحد المقاعد وهى متهالكة وقد غاض الدم من وجهها وكأنها فقدت وعيها بينما كانت أمها تواصل حديثها دون أن تترك لى الوقت لكى أجيبها على سؤالها عن التشابه إذ كان يفهم منه أننى أعرف النموذج الذى نقلت عنه هذه الصورة

— لقد شاهدت بنفسك مقدار ضعف أعصابها والدوار يعتريها باستمرار ! ... أرجوك أن تفحص عن دائها كما طلبت منك . ألا تتفضل بالذهاب إلى مخدعها ؟ أتستطيعين المشى يا ابنتى ؟ فأجبتها وأنا أساعد ابنتها على الوقوف . طبعاً يا سيدتى ، استندى علىّ يا آنسة ، وأنت يا سيدتى هدئى روعك فلا خوف عليها

وقد دلنى تقبض يد لويز على معصمى وارتعاش ذراعها على ما بها من اضطراب أخذ يهدأ شيئاً فشيئاً منذ خرجنا من القاعة . ثم دخلنا مخدعها فاقنعتها بالرقاد على السرير . ولما ملت عليها لكى أثبت رأسها على الوسادة قالت لى هامسة : « أخرج أمى . أخرجها بأى شكل » وبدا عليها الانزعاج والرعب حتى أننى أطعتها طبقاً للمبدأ القديم الذى يقرر عدم التصادم مع المصابين . فالتفت إلى والدتها قائلا : « أكرر لك يا سيدتى أن لا خوف عليها . سترتاح الآنسة قليلا بينما أوجه إليها بعض الأسئلة وأظن أننى أستطيع أن أؤكد لك أننى سأعود إليك بها بعد نصف ساعة وهى على أحسن حال مستعدة لتناول الطعام كأن لم يكن هذا الحادث الذى أثارته حرارة الجو ولا شك — فقد كنا فى شهر يونيو — فقالت السيدة لور :

— أنا ذاهبة إذن لأصدر بعض الأوامر ... ومع ذلك فهاهو ذا الدم قد أخذ يتصاعد إلى وجنتيها . ثم قبلتها وقالت وهى تدلها : أجيبى بدقة على أسئلة الطبيب أيتها البنت الخبيثة ... ثم فكرى فيما يصيب لوسيان المسكين لو رآك فى الحال التى كنت عليها ! وأنت يا سيدى الطبيب أرجو المعذرة من مثل هذه المقابلة؛ وإذا احتجت إلى فدق الجرس فأعود سريعاً

وما كادت تقفل الباب حتى قامت لويز وقالت لى : « لا داعى لتوجيه الأسئلة إلى يا سيدى الطبيب فليس بى من مرض وإنما صعقت عند ما رأيتك تنظر إلى تلك الصورة التى وضعتها أمى هناك خصيصاً لك لكى تهتدى . إنها صورة خطيبى الحقيقى لا الذى جاءك فى باريس ... » وعند ما رأت عجبى قالت : « آه . لا يمكنك أن تفهم ... إننى أنا الذى أردت أن يطلب لوسيان من أحد أصدقائه — وهو زميل أنقذ لوسيان حياته فى فردان فأصبح يخلص له إخلاصاً أخوياً — أن يلعب هذا الدور فيذهب

إليك بدله متسمياً باسمه للحصول على الشهادة التي ما كنت تقبل أن تعطيها له هو الذى يعرف نفسه معرضاً لذات الصدر فيمتنع زواجنا وكان لا بد لى أن أتزوجه » . ثم عادت فقالت وهى تشد على معصمى بقسوة وحشية هذه المرة : « لا بد لى » . ثم بصوت متحشرج : « إننى حليلته وأنا حامل » ثم وضعت كفيها على وجهها وأخذت تنتحب وتنشج وهى تواصل اعترافها المحزن :

— عرفت من أمى فى الساعة السادسة أنك جئت إلى هنا وأنك ستأتى هذا المساء لتناول العشاء. لم يكن ثمة مناص من وقوع المأساة وانكشاف الحقيقة فطرد لوسيان من بيتنا عند ما تقول : « ولكن ليس هـذا الذى جاءني فى باريس . . . » فاذا كان يحدث لى أنا المدلهة بحبه ! . . خرجت معتذرة بعذر ما وجريت إلى الفندق الذى نزلت فيه والذى عرفت عنوانه من أمى ... ولكنك لم تكن هناك فعدت إلى هنا ولكن بعد أن كانت قد وضعت الصورة فى الغرفة . ولحسن الحظ أنها كانت طلبت منك أن تبكر قليلا عن الموعد لأن صحتى أهمتها. وكانت كثرة الاضطرابات النفسية قد أتعبتنى فوطنت النفس على أن أصارحك وأن تعرف كل شىء إذ ماذا كان يحدث لو أجبت على سؤال والدتى : «تشبهه؟ ولـكننى لا أعرف الأصل ... » أكرر لك القول هناك كانت المساة بل الكارثة . ولـكننى لحسن الحظ شعرت بالألم قبـل أن تتكلم . . . والآن هل ستتكلم ؟ .. فقلت لها وقد تملكنى الفزع من هول ما سمعت « ولكن واجبي يا آنسة ! .. إنك تطلبين منى شهادة زور وشهادة زور تتعلق بمهنتى » .

كانت قد انتهت من البكاء فحدجتنى ببصرها وقالت لى بعزم أشعرنى بأنها لن تنثنى عما قررته

— ليس الوقت وقت مناقشة وقد أوشكت أمى أن تعود فخبرها فى الحال إذا كنت انتويت إخبارها فتكون قد رحمتنى لأن هذا الشك يقتلنى ، ولـكن تيقن من أننى عندما أخرج من هذه الغرفة سأذهب لأنتحر ولك الخيار الآن فيما تقرر ...

وجلست إلى منضدة الزينة وأخذت تصفف شعرها بهدوء أمام المرآة كأن الحديث الذى تبادلناه كان حديثاً عادياً . وكنت أرى وجهها الجميل وقد هدأ الآن كما يحدث فى الأزمات الداخلية إذ تتركز الثورة فى قرار ينقذ النفس منها فترتاح إليه مهما يكن الشر المنطوى عليه . ماذا يجب علىّ إذاً أن أصنع ؟ وما هو واجبى ؟ وهل تهديدها بالانتحار صادق ؟ ولـكن وجه الفتاة الثابت أزال كل أثر للشك من مخيلتى ، فاذا تكلمت انتحرت ، ولـكن لو سكت عن واجبى لـكنت شريكا فى هذا الخداع ولـكى يقبل خطيب هذه الفتاة التعسة الموافقة على إحلال آخر محله فى مسألة الشهادة يجب أن يكون إما ضعيف الارادة إذا كانت الفـكرة فـكرتهـا أو سافلاً إذا كان هو الذي فـكر فى هذا الخداع. المفوت . وثمة إغواؤها وحملها منه ! هل يجب أن أشترك فى هذه المخازى بكذبى على أمها التى ستكون هنا بعد بضع دقائق . هذه الأم ذات النفس العالية والاخلاص وكرم الأخلاق ! هـذه الخلال التي كثيراً ما برهنت عليها فى المستشفى ؟ هاهى ذى تقترب فعلاً . إذ تنبهت حواسى كما يحدث للانسان فى الأحوال العصبية الشديدة ، فسمعت وقع خطواتها

فى الغرفة المجاورة كما سمعته لويز أيضاً . فالتفتت واتجهت نحو الباب ونظرت إلى مرة أخرى وهى ملازمة الصمت ، فتبين لى أنها ستقف هناك مستعدة للخروج إذا دلتها كلماتى الأولى على أننى لا أوافقها. فهل كانت تخبئ سلاحاً أو قارورة سم أم كانت تفكر فى إلقاء نفسها من نافذة غرفة مجاورة ؟ لم يبق ثمة مجال للتردد بعد أن تيقنت أن وقوع المصيبة — التى لا يمكن تلافيها لو وقعت — متعلق بى . فان الكلام معناه قتل هذه الطفلة المسكينة التى باحت إلىّ بسرها المشؤوم ووضعت مصيرها بين يدي . وفجأة اتخذت قراراً كما يحدث كثيراً لأحد الجراحين أثناء إحدى العمليات الصعبة إذ تطرأ له فكرة فيتخذ قراراً حاسماً ، قلت لنفسى : « ماذا تخشى الأم أن يجتاز ابنتها مصدور فتحمل منه ؟ إنها لم تستطع منع هذه النكبة فما الفائدة من إخبارها إلا وقوعها في نكبة أعظم ! إذن فواجبى كطبيب يعرف ما عرفته وما يمكن حصوله بل ما لا بد حاصل — هو السكوت

وبينما والدتها تدخل المخدع فاجأتها قبل أن توجه إلى أى سؤال بقولى : « اطمئنى ياسيدتى . ليس بالآنسة شيء سوى بعض الإعياء وهو طبعي فى الأحوال الراهنة . فهناك التعب فى إعداد معدات الزواج . وليس لدى ما أصفه لها بل أنصحها فقط ألا ترهق نفسها »

لم أكن مزهواً طبعا وأنا أنطق كلماتى هذه التى جعلتنى أس هذا التواطؤ الذى اشمأزت منه نفسى فى مبدأ الأمر . وبدل أن تلطف نظرات الفتاة التى كانت تعبر عن الشكر من حدتى أهاجتنى كأنها كانت سبة موجهة إلىّ . وبعد دخول والدتها وسكوتى عدنا إلى غرفة الاستقبال الصغيرة حيث كان يجلس والد لويز وخطيبها الذى عرفته من مشابهته للرسم . فلم يظهر على الاندهاش عند ما تقدم لمصافحتى وهو مضطرب مما يدل على الخجل الذى كان يساوره والذى كان يجب أن أقدره له، ولكنى لم أر فى موقفه إلا دليلا على الرياء والخداع . إن هذا العشاء الذي جمع الأسرة وبعض الأصدقاء كان طويلا ومؤلما بالنسبة لى، فان مرح لويز الذى كنت أظنه مصطنعا كان يثير اشمئزازى كلما قهقهت ضاحكة، وكان السرور البادى على باقى الأضياف يؤلمنى أشد الألم، وكان شعورى أمام هؤلاء الناس السليمى النية بأننى حامى الرياء يضاعف وخز ضميرى . ولم أتخلص مما انتابنى إلا بعد انتهاء العشاء إذ بادرت بالهرب مدعيا التعب بسبب السفر وواعدا بالعودة في اليوم التالى للفطور بينما صممت على مغادرة المدينة فى نفس الليلة بقطار الساعة الحادية عشرة على أن أتخلص من وعدى تليفونيا عند وصولى إلى الفندق بدعوى ورود برقية تدعونى إلى العودة مريعا إلي باريس . وهذه كذبة أخرى ولكنكم تدركون طبعا أننى اغتفرتها لنفسى. أما الكذبة الأولى فكم كانت تؤلمنى وأنا عائد مضطرب الخاطر مثقل بالهموم

قلت لكم عندما بدأت هذه القصة إنها أثارت ألمى وحزنى إلى أقصى حد ، وإنها كانت فى نفس الوقت عزائى فى مهنتى . وها كم تفسير هذا التناقض فقد عدت إلى باريس بعد تلك الليلة المشؤومة مثقلا بالهم الذى اشتدت وطأته عندما وصلتنى الدعوة الرسمية إلى هذا الزواج الذى لعبت فيه بواسطة سكوتى دوراً يتنافى مع نزاهتى وصراحتى . فكم ندمت وقتئذ على سكوتى بل بلغت درجة الندم أننى برغم أبسط قواعد الأدب لم أرسل رداً ولو برقياً على هذه الدعوة . تصوروا مقدار تأثرى بعد يومين

من الحفلة التى كنت أعلم ما انطوت عليه من الغش عندما رأيت لويز نفسها تدخل مكتب العيادة وتجلس على نفس المقعد الذى جلست عليه أمها منذ ستة أسابيع . نعم رأيت لويز نفسها مشرقة الوجه تهتز طرباً فقالت لى عندما رأت صمتى ووجومى — فهل كنت أستطيع أن أرى فى هذه الزيارة إلا منتهى القحة؟

— نعم ! هذى أنا يا سيدى الطبيب . أنا التى كنت أرغب فى طلب غفرانك . لقد أدركت تماماً مقدار ألمك أثناء ذلك العشاء فأقسمت أمام نفسى لآتينك لأشرح لك الأمر فى باريس . وهذا ما دعانى للحضور . ثم إننى لا أحتمل أن تظن فى زوجى أنه لم يرع الشرف وجعل منى خليلته قبل الزواج . إن هذا عين الخطأ لأنه ما انفك يحترم تلك التى ستحمل اسمه . أما هناك فقد كذبت عليك ، وإننى أتوسل إليك أن تسامحنى من أجل هذه الكذبة لأنه كان يجب علىّ أن أمنعك بكل طريقة من إخبار والدى بارسال بديل من لوسيان بعد أن عاينت ما عانيت فى إقناعه ، لأننى أنا التى فكرت فى هذه الطريقة للحصول على الشهادة التى فرضاها عليه . فلما جئت إلى هناك ، وجعلت تنظر إلى الصورة ودخلت أنا ووالدتى جننت فزعاً فوصمت نفسى أمامك بالعار ونطقت بكلمة الانتحار لأرغمك على السكوت . هل كنت أنتحر لو تكلمت ؟ لا أظن ! لأننى أحب لوسيان إلى أقصى حد ، بل كنت أهرب من البيت وأرتمى بين ذراعيه طالبة منه أن يأخذنى ضاربة صفحاً عن الزواج الدينى . ولكننى متدينة ففعلت أخيراً ما فعلت . لك أن تدينى كما تشاء ، ولكن لوسيان يجب أن يسترد اعتباره لديك لأننى عندما رويت له ذلك الفصل المروع أراد أن يكتب لك ، ولكننى رجوته فى أن يدع لى أنا الاعتراف لك بالحقيقة . إننى أشعر بالحاجة إلى أن تحترمه وأن تراه كما هو على حقيقته ، فكم أنبه ضميره وعذبه لأنه أرسل صديقه إليك بديلا منه . أكرر لك القول بأننى أنا التى أردت ذلك ، وإننى كنت أحبه فوق الطاقة

كثيراً ما فكرت فى أنه ينبعث من كل فرد منا إشعاع ينتقل منه إلى الآخرين بواسطة الاشارة أو النظر أو الحيا وأن هذا الاشعاع يوجد بين الأشخاص إما تنافراً قوياً وإما توافقاً لا يقاوم . وإلا فكيف نفسر الانقلاب الذى أحدثه هذا السمى الجديد الذى كان لى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أنه ينطوى على مكيدة جديدة مستترة بعد أن عرفت عن لويز أنها أهل لحبك مكرها ، ولا أظن أن أى كلمة مهما قست لا تصح أن تكون نعتاً للطريقة التى استعملتها هى وحبيبها للحصول على شهادة الصلاحية للزواج المزورة . ألم تتهم هى بذاتها نفسها بأنها مثلت أمامى دور الحبلى ودور المنتحرة اللذين أخمانى فى هذا الغش الذى ما زال ضميرى ويخزنى بسببه كل يوم ، ولكننى عندما كنت أشاهدها وأستمع إلى كلامها وأرى تأثرها وحماستها تتمحى كل تلك الأسباب فجأة وتعود لويز فى نظرى تلك المرضة الصغيرة التى كانت فى المستشفى والتى كنت أقدر فيها إخلاصها على صغر سنها . ولعل شيئاً من العطف الذى امتزج بتقديرى لها هو الذى جعل إغضاءها لى بغلطتها الأولى أشد وقعاً وأكثر إيلاماً كما جعلنى أشعر بالعزاء لدفاعها عن براءتها . وعلى كل حال فقد رأيتنى أجيبها :

— ليس ثمة ما يدعو إلى طلب الصفح يا سيدة..

فقاطعتنى قائلة :

— كنت فى المستشفى تدعونى لويز

فقلت لها إننى أقدرك الآن يا لويز كما كنت أقدرك هناك . لقد جزت دقيقة عصيبة جداً عندما سألتنى أمك عن الصورة ولكن يجب

أن تطلبي الصفح منها . فقالت :

— لا وجه لذلك إذا أنقذت زوجي لأنها كانت تريد ألا أتزوج مريضاً وكنت أنا موقنة من أنني سأخلصه . نعم إنه مريض ولكن بقدر يسير وما دعاني إلى الالتجاء إلى الطبيب الذي طالما رأيته يصنع العجائب عند ما كنت ملحقة بخدمته إلا لكي يعنى بزوجي العزيز ويشفيه لي

لقد قبلت وبمساعدتها القيمة أمكنني أن أرى هذا العليل الذي ما كنت أوافق على زواجه ألبتة لو كان هو أتى بنفسه لأفحص عن دائه كما طلبت منه والدة لويز المدلهة . حقا لم يمسّ المرض رئته إلا مسا رفيقا، وهو الآن وبعد مضي ست سنوات وبفضل عنايتها هي على الأخص قد أصبح بمنجاة من كل خطر . وقد أنجبا ثلاثة أولاد هم مضرب المثل في القوة والصحة ، وقد ولد أولهم بعد الزواج بعشرة أشهر وهذا دليل آخر على أنها اتهمت نفسها . ترون من هذه القصة أن فائدة شهادة الصلاحية للزواج ليست أكيدة كما يبدو لأول وهلة ، ولو أنها كانت مفروضة فملالما وجدت هذه الأسرة السعيدة . هذا ولكم أن تستخلصوا من هذه المأساة التي اشتركت فيها النتيجة التي تحلو لكم، أما أنا فقد خرجت منها بهذه الحقيقة المؤثرة برغم بساطتها، وهي أن المرأة التي تحب حبا حقيقيا لا تثنيها عن عزمها صعوبة ما؛ فأطهر النساء تقدم على إتيان أحط الأمور أو أنبلها لتحقيق غرضها ، وإنه لمن عجائب الطبيعة وجود قلب كقلب لويز الذي يصنع العجائب وأمامكم هذا الزواج وهذا الشفاء أكبر دليلين على ذلك .

عبد الله الرباشي

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

ص
٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)
٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)
١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)
١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة
وكتب الزراعة تطلب من
شركة البذور المصرية بميدان ابراهيم باشا

عبد المعطي المسيري
يقدم كتابه الثاني
الظامئون
به القصص الآتية :
وكدى . بيني وبين نفسي . بيت الحظ . أول غرام . الصماليك
قدم له القصصي العظيم
محمود تيمور بك

لوحات فنية للأستاذين : بدر أمين وشفيق رزق الله
يطلب الكتاب من مؤلفه بقهوة رمسيس بدمنهور
ومن مكتبة النهضة بمصر ومكتبة فيكتوريا بالاسكندرية
الثمن خمسة قروش صاغ

يد الهندي

للكاتب الأمريكي : لورنس استودارد
بقلم السيد محمد العزاوي

هب الرجال إلى أعمالهم متدافعين عليها متواثبين ؛ وبعد أمد قصير كنت ترى عرباتهم وبغالهم تختفي خلف الهضاب القائمة بأقصى الأفق ، وكنت تراهم يبدون من آن لآخر ، حين تسمح لهم بذاك فروج الغاب والهضاب ، فكأنهم زوارق يغشاها موج كالظلال من حين إلى حين ... وكانت صيحاتهم المرحة تخفت رويداً رويداً كلما بعد الركب واختفى في ضباب البعد بين أدغال وأحراج . . .

ومكث الصبية بالحي والنسوة ، وبقى معهم رجلان من الخوالف قد وهن العظم منهما واشتعل الرأس شيباً . وقد كان الركب بحاجة إليهما ليصحبا الصيادين في رحلتهم هـذه « فأي أذى يلحق بالحي وضح الضحى ما دامت الدببة والنمر بعيدة في الأدغال ؟ وعلى أية حال فسوف يأتي الركب محملا عرباتيه بصيد سمين مع المساء » . وقال لهن جيم الصياد : « سوف نحمل لكن الدببة على البغال فلا تخشين بأساً ولا توجسن شراً » فتصايح الغلمان ورقصوا طرباً إذ تصور كل نصيبه في المساء بين يديه ينهشه ويقضمه في شوق ولهفة ؛ بينا النار تلفحه بصهدها ولظاها ...

وأمسكت أنثى غضوب بعلها ، وصاحت به في خوف وهلع : « ولكن الهنود الحمر .. » فأضحك ذاك الجمع كله ، وصاحوا : « يا للهنود ... ! كيف ؟! إن أقدامهم لم تطأ هذه البقعة منذ عشرين عاماً ، وكانت عليهم حجراً محجوراً . لقد كسحناهم إلى مكان بعيد خلف ذلك السهل الذي ينبطح تحت أقدامكن واستراحوا إلى تلك البطاح التي تسفح رمالها الهاجرة فتصهر عظامهم وتحرق أقدامهم إذا ما ساروا أياماً يطلبون الماء فلا يكادون يشربون »

فقالت المرأة الغضوب الشاحبة : « ولكنهم مرة عادوا . إنهم لا يحفظون لنا إلاً ولا ذمة » . فصاح زوجها الذي غطت صدره لحية شهباء : « نعم لقد أتوا مرة فأحرقوا لنا كوخين . ضرر صغير ما أحدثه الكلاب » . فضغطت الزوجة على ذراع بعلها لتسكته خيفة : « صه ! » . وصمت الرجال من حولها متظاهرين بربط اللجم وإحكام السروج ولكنهم كانوا يرسلون بصرهم خفية إلى فتاة لبست سواد الحداد ؛ وقفت برهة ثم دخلت بيتها من دونهم . فقال ذو اللحية وهو يلتقط بندقيته :

— حقاً لقد أنسيتُ طفلها ؛ وما أنسانيه إلا الشيطان !

وشدوا الرحال في طراوة الصبح وغرة الضحى إلى الجبال حيث الصيد والشجر ... وبدأت الظلال المستطيلة تتقاص ما سبحت الشمس في السماء ...

وعادت الثكلى إلى بابها فوقفت جواره . ولم يحيها أحد فيقرئها سلاماً ، وعادت كل امرأة إلى كوخها ، وبقى الغلمان يلعبون أمام المنازل الأخرى صاخبين ضاحكين ، يثيرون في لعبهم عثيراً وتراباً ، ما أسعدهم ! إن أمامهم يوم لهو طويلا

ولكن المرأة ذات السواد واقفة ما تزال ،

ساكنة ما تتحرك ، قابضة بيدها على الأخرى ، شاخصة لا تطرف ؛ مرسلة بصرها — خلال السهل — إلى حيث ضاع طفلها — إلى المكسيك

كان وجهها ناحلاً هزيلاً ، فملامحه حادة ناتئة قد لوحته الشمس بحرها فأكسبته سمرة قانية لم تكن له من قبل وقد كان صبوحاً ... لم يكن حيا بوجهها إلا عينيها السوداوين اللامعتين ، فقد كانتا توريان ببريق غريب

وكان كوخها بعيداً عن الأكواخ الأخر ، يقوم على سفح هضبة تواجه الأبطح القفر

إنها سمعت قول ذى اللحية الشهباء : « ضرر صغير ما أحدثه الكلاب » أنسى حينذاك طفلها ؟ وكيف ينساه وقد وقفت تذكرة لمن ينسى ؟

بالقرب من كوخها تقوم صخرة كتب عليها « ذهب ويلى ، ٦٩ » . لقد احتفرت تلك الحروف يداها فى آخر مكان لعب فيه طفلها العزيز ، وادكرت كيف تركته وانسلت ، حتى لا يبكى ويلح فى استصحابها ، تركته دون أن تحتضنه أو تلثمه . يا للأسى ! وهنا ضربت ذات السواد بيديها حيطان كوخها :

— ويْ ! من لى بتلك القبلة ، وأموت !

ولكنها ذهبت إلى جارتها الشاحبة ولم تكن شاحبة إذ ذاك أو أرملة مثلها ، بل عروساً هانئة ضحكتا ما شاء لها الضحك ، وتحدثتا بما سمح الحديث. وإنها لتذكر أنهما كانتا تتحدثان عن النازلين الجدد فى الحىّ . وكان يوم عطلة فغنمه الرجال فاغتدوا إلى الغاب يقطعون منه الشجر والغصون ليبتنوا أكواخاً لهم ومنازل . وبينما هما تتحدثان فى سرور وجذل إذا بهما تسمعان ما ظنتاه نباح كلب يعدو بين الهضاب والغيران ففزعتا إلى النافذة فبصرتا بخيل كثير تسبح فى الهواء سبحاً عند منعطف الطريق . وسمعتا وقع السنابك على الصخر سريعاً مدوياً ، وعلى ظهور الخيل فرسان تلهبها بالسياط والأرجل العارية ، فتنهب الأرض فى سرعة البرق وبطش العاصفة . وهنالك صرخت المرأة الشاحبة وولت الأدبار . لقد كانوا الهنود الحمر ، جاءوا ليعيثوا فساداً فى حي البيض

عم الفزع وساد الهرج ، ولكنها أوصدت من دونها الباب واستراحت إلى كوخها المتين ، وكانت تنظر من خصاص الباب فترى الأمهات يجرين على الهضاب جازعات هاربات ، وبأيديهن أطفالهن الصغار

أطفالهن ! ... وأين طفلها العزيز ؟

لقد تحولت إذ ذاك إلى صنم من صخر وفتحت الباب ...

وتجاذبها الهنود ببأس وقوة فشعثوا شعرها وضربوها حتى كادت تموت . ولكنها دافعت عن نفسها أحسن مما يدافع عشرة رجال سوياً . وماذا تعمل وقد كان هناك عشرون رجلا وهي وحيدة كحمل بين شرذمة من ذئاب جائعة ... كان الطريق مقفراً فلا شيء يدفع عنها عادية الهنود . وأمسك أحد بنحرها وضغط ، فكادت تموت خنقاً وضربها آخر على وجهها ، وصك صدرها حتى كادت تلقى حتفها . وجذبها ثالث على جواده — بعد أن أحرق كوخاً — وفر بها مسرعاً إلى قلب الفلاة . كانت يداها مغلولتين ، وعيناها غارقتين فى دموعها الثرّة ، ولكن لم يكن يعنيها من هذا شيء قدر ما يعنيها طفلها . « ترى الآن أين هو ؟ »

وكان الرصاص — من وراء — يئز فوق رؤوس الهنود أزاً. لاشك أن البيض أتوا يتفقدون عيالهم وحامم . وفى الحق أنهم كانوا يعدون فوق الهضاب كأن بهم مساً أو جنوناً ، وفر الجنود عائدين كيلا تكون كرّة خاسرة ، فروا بكوخها وهناك كان الغلام — حيث تركته أمه — جازعاً مذعوراً . فلما أن قاربته لوحت له بيديها المغلولتين صائحة : « يا أحمق ! يا أحمق »

وهنا ضربت ذات السواد جبينها بيديها قائلة : « واحمق ! » لم لم تمر به دون أن تلحظه ؟

ولكنها توسلت وتضرعت ، ثم تشاجرت وناضلت لتصل إليه . ولكن الهندى توقف لحظة ليخطف الغلام ثم يسير سيرته الأولى

فكرت أثناء الفرار فيما عساهم فاعلين بها وبطفلها فحاولت أن تطلق سراحه فينعم بحريته ، ولكن الهندى كان ماكراً جباراً ...

وكان البيض يجدون فى العدو وراء الزنوج ، وفى ضرب الرصاص . وكان الجواد الذى كان يركبه الهندى — ممسكاً بها وبطفلها — يحمحم من شدة ما يعانى ، ويجاهد فى العدو لاهثاً حتى كاد أن يصوم عن النفس . فهو يجر أرجله السابحة في الهواء واهناً يكاد أن يبرك . ورأى الهندى ذلك ففرق بين الصبى وأمه فأسقطها حتى يكفى الجواد حملها . ولكنها قامت وعدت وراءهم غارقة فى التراب لا تكاد تعى من الأمر شيئاً . لابد أن يخطفوها هى الأخرى فدعتهم — وهى باكية تعدو خلفهم — أن يأخذوها فما سمعوا لها دعاء . وعثرت ولا مقيل من العثرة .. وصاحت ولكن لا مجيب . كان هذا كل شىء . فقصتها تنتهى هنا ، تنتهى بين التصايح والفرار ، بين وقع السنابك والعفار ، تنتهي بطعم الطين فى فمها ، ونار الثكل فى حنايا الضلوع .. وألفوها على الرمال غائبة الوعى . ولما أن ثاب إليها الرشد وذهب عنها الروع ، ورعتها جيرانها الكثر ، سمت إلى كوخها الذى تقف الآن ببابه سامدة لا تنطق ولا تبين ، مقنعة رأسها لا تلتفت يميناً ولا يساراً ، مرسلة بصرها خلال الرمال إلى حيث راح « غلامها » إلى المكسيك ...

وتعاقبت السنون وهى لا تزال وحيدة فى كوخها الذى كان يجب أن يعيش به « ابنها » . إنها الآن ترى غباراً يقوم بأقصى الأفق . تراه هنا وهناك — تذروه الرياح — من بين الهضاب يقترب دائماً ويعظم أبداً ، ولكنه كان هادئاً شفاً لا يمكن أن يحمل بين ثناياه أحداً حتى الهنود !

إن الغلام الذى تعرف قد مات ، ولكن القتلة أحياء بين أهلهم ينعمون . لو كان أحدهم بيديها الآن ... لأرته كيف يكون الثأر إذن ، وكيف يكون القصاص !

وطفقت ذات السواد تصور ما هى فاعلة به إذ هو بين يديها أسير ضعيف . لتريته الموت والفزع الأكبر ولتوسمنه عذاباً ونكالاً . ومن أقدر على ذلك من ثاكل موتور ؟! ورامقت النار في المصطلى تستوثق من لهيبها ولظاها ؛ إذ زادتها كتل الخشب توهجاً ولهيباً . وألقت فيها حطاماً وحطباً ، أتت به من الجبل بشق النفس . ولكن النار لم تزدد سميراً ، بل لم تكف لأن تشيع الدفء فيها ، فجثت أمام المصطلى ، وبصرت بالحديد يحمر قليلا قليلا . وتوهج اسم المصنع الذى صنع الموقد . وكانت الحروف كلها بارزة إلا المقطع الأخير من كلمة « مؤتمر Congress »

ولمست تلك الحروف والأرقام « S.S. 64 » يالها من حروف ! فقد ادكرت كيف تركته أمام الموقد يوماً فأعجبه وهج الحروف والأرقام فقبض عليها فى براءة وسذاجة ، فهى منقوشة على يده منذ الصغر ، وإنها لتستطيع أن تعرفه من بين الملايين بتلك الآية البينة !

ولكنه مات ، وبقى الزنوج !

ووثبت ذات السواد فقد دارت بخلدها فكرة : « لم لا تذهب إليهم تتوسمه من بينهم . فربما ألفته بين ظهرانيهم . لا عائق اليوم يمنعها . فهى بعد أن ترتوى من الأماكن النزة فى السهل لا يهمها من أمرها شىء

إن الرجال فى حالهم لاهون ، والنساء فى أكواخهن عاملات . فلن يبصر بها أحد فيمنعها عن المضى إلى حيث شاءت وشاء لها الجوى !

وتأملت ذات السواد ثم قامت فانحدرت على السفح فولجت الأحراج فهى فى المرج تسعى . وكان الجو لا يزال لطيفاً طرياً ... ولا بد للصحراء من أخرى حتى تصل إلى المكسيك . إذن فسوف تجتازها بصبر وجلد . فجدت فى السير حتى أخذ العفار يخنقها ويؤذيها . ولكنها سارت على الرمل قُدُماً لا تلوى على أحد . كانت تجد فى السير حتى إذا ما تعبت نظرت خلفها إلى كوخها القائم فى أقصى المدى ، ثم إلى نافذة الكوخ المجاور حيث تجلس المرأة الشاحبة

علا التراب حتى غرقت فيه فآلمها وأسخطها ، ولكنها مازالت تسير وتوسع الخطى . ولكن انخلع كعب حذائها فعوّقها عن متابعة السير وأعياها . فجلست تبكى وتنشج . وفكرت فى العود كيما تلبس حذاءها الآخر ؛ ذلك الذى تلبس أيام الأحد . وبدت لها الهضاب بعيدة فعدلت عما انتوت ، وسارت إلى المكسيك سريعاً . على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد خارت قواها ، ووهنت أوصالها ، فاستراحت إلى ظل صخرة ، وقد جف حلقها حتى كاد ينحطم ولا ماء بقربها يرويها . فعزمت على أن تعود وتبدأ مع الفجر مرة أخرى ، تكون فيها أشد على البلاء وأقوى ؛ أو تذهب فى الليل حين تسمح لها طراوته بأن تتقدم مسافة لا تستطيع القفول بعدها

وعانت فى الرجوع أهوالاً وشدائد . وأخيراً بلغت التل ، فبرزت لها — من كوخها — الجارة الشاحبة وحيتها ، فلم تجب ذات السواد ، بل دخلت الكوخ وأغلقت من دونها الباب ، ثم تطرحت على السرير ، وجرعت من كأس الكرى جرعات ، ونامت على نغم الذباب وقرع النافذة . وتنهدت المرأة الشاحبة وأرسلت بصرها يجوب السهل ، فبصرت بما بصرت به ذات السواد فى ميعة الضحى : بصرت بذلك الغبار الشف يسير قُدُماً متكاثفاً متدافعاً ، وأحست برعدة الخوف تسرى بفرعها لما أن رأته يسير نحو الحى ، وقالت فى نفسها : « إنه يهب دائماً ، ولكن ليس بهذا الشكل المريب » . وأدامت إليه النظر ، ولكنها لم تر إلا تراباً ؛ وازدحمت برأسها الأفكار ؛ غير أن فكرة سيطرت عليها : أن تذهب إلى زوجة العمدة فان لديها منظاراً . وسخرت منها السيدة ؛ وظنت أنها مخلوق جبان

ولم تقدر المرأة الشاحبة على أن ترفعه بيديها فقد علتها رعدة وزاد شحوبها . وتناولته امرأة العمدة — وكانت ما تزال ضاحكة نشوى — ونظرت خلاله فما لبثت أن علا وجهها فترة وغيض لونها :

— إني أرى على البعد رأساً ...

فصرخت المرأة الشاحبة :

— إنهم منا الآن على أميال . فلا يزال لدينا وقت وفير

— له ؟

— لنهرب ...

— ربما كانوا أصدقاء وادعين ...

— كلا، إنهم الزنوج ...! فالبيض مايستطيعون في تلك الفلاة حياة ... لنهرب في الغاب ... ! النجدة ... ! ساعدبني ... ! حذري النسوة واجمي الأطفال ، هيا ... !

واندفعت لبيتها ، بينما كانت الأخرى واقفة تصيخ السمع الرهيف ، وتحرص ما ترى ... حقًّا لقد أوجس قلبها خيفة ... وقد صدق الفؤاد ما رأى ، إن هذه إلا غزوة أخرى

وساد المكان هرج وتصايح مكتوم ... كل ينادي طفله وذويه ، و كانت الفتيات يتنقلن من كوخ لآخر خشماً وبكيا ؛ يحملن ما عز عليهن تركه للبغاة الظالمين غنماً . وتجمع النسوة والأطفال خلف كوخ كبير يحجب عنهن العيون الظالمة العادية

وقادت أباها الفتاة الشاحبة . ثم هرعت إلى كوخ صاحبتها ونادت في صوت خافت واضح : « أي ماري ! ماري ! » ، ولكن أحداً لم يجب . فقد كانت ذات السواد تغط في نوم عميق ، وترددت جارتها الشاحبة ... ولكنها أحجمت وأسرعت نحو أخواتها اللائي عدون خلال الشعاب إلى الجبال حيث أزواجهن بصيدهم لاهون

غشى المكان صمت القبور ... التراب لا يزال يزحف عاتياً جباراً ... النساء يلمأن من بين الجبال رؤوساً كأنها رؤوس الشياطين ... وذات السواد ما تزال نائمة ، تحلم أن قد حان حين الثأر ، ونعم الأوان ... ! وأنها تحمل بين يديها رأس هندي عتيد ... ...

وداعب الهواء نافذة الكوخ بشدة وجزع .

فقامت ذات السواد وبين ضلوعها حس غريب ، وتحاملت إلى النافذة ، وأطلت منها ، فلم تر شيئاً في السهول ولا في الهضاب. ولم يكن بالطريق شيء إلا شال كبير قد سقط بعرضه . وانحنت صوب الغار فبصرت بالفازعات الهاربات يجرين صامتات واجمات، وأبصرت بشعورهن تسبح في الهواء من سرعة العدو . فألقت السمع ، فهال سمعها وقع رتيب غريب

وحينذاك تبسمت: « انهزامدري » ! إنهم الهنود جاؤوا يعبثون بالمحصنات والمتاع . ألا ساء ما يعملون

وجلست على طرف الوسادة مفكرة ... إن هذا ما كانت ترجو وتطلب . أفيكون دورها هذا ؟ أم لا يزال دورهم ؟

إنها تستطيع أن تقتل « رامرا »

ولكن أين سلاحها ؟ ... لقد استعار الرجال بندقيتها ...

فأين الآن فأسها ؟ ... إنها في الطابق الأول

إن الأرض لتمور موراً ، والخيل يكسح بعضها — في الحي — بعضاً كأنها قطع الليل ، وتصايح الهنود ينبجس في الطريق أمامها

هبطت الدرج سريعة ، وأخذت فأسها من مكانها بالحائط ، وكانوا قد بلغوا كوخها ، فأضاءت الحجرة قليلاً . ووقفت عاقدةً العزم على أن تقتل منهم أحداً . ورأت بالباب « أحدهم » يحجب عنها الشمس بظهره العريض . فمضت على نواجذها

وأخفت فأسها ثم طفقت تراقبه دون أن تطرف

وامتدت يداه نحوها كالمخالب ، وبرقت عيناه كأنها نورية الزناد . ثم تقدم صوبها فتملكها رعب وفزع . فصرخت صرخة خافتة ثم تخطته فقفزت إلى الدرج وأسرعت الخطو . وبينا هى تصعد رمت غريمها بمقعد كان أمامها كي يعوقه ذلك عن اللحاق بها ، ثم ارتقت سلماً آخر إلى «صفة» بأعلى البناء دخلتها ، فأوصدتها ؛ فارتمت على بابها ، ثم طفقت تنتظر ، وساد السكون إلا فى الخارج ، حيث تسمع صيحات بعيدة . وجثت على الأرض تخبرها بسمعها. إنها تسمع ترديد النفس في صدر كبير ... وتلفتت حولها فاذا بها ترى عيناً مبصرة تحدق فيها من شق بالأرض ، ولكنها ظلت واقفة قابضة على السلاح

ولت الباب ظهرها . ولكنها « أُهست » بأن هناك شيئاً ، فاستدارت فرأت يدا — ذراعها تحت السقف — تبحث عن قفل الباب لتفتحه

ورفعت المرأة فأسها فوق رأسها ... ولمست الأنامل قفل الباب وفتحته فى هدوء ...

وحينئذ هوت الفأس — بكل ما ولده الثأر من بأس وقوة — على رسغ يد الهندى فقفزت إليها اليد ... وسقط الرجل موجعاً

وساد السكون مرة أخرى ...

وبلل دم الجريح وجهها فأدفأه ...

وسمعت فى الخارج تحطيم كوخ يحترق ... فقصف الرصاص من بعيد ... فصيحات تغالب البعد السحيق . وسارت إلى نافذة الصفة . فرأت منزل العمدة يحترق ... والهنود يتراجعون تاركين جواداً واحداً يرعى . « انها » تعرف صاحبه ! إنه « أحدهم » جاء قساهم فكان من المدحضين . وبينا الهنود يسرعون فى الفرار إذ بهم يقفون على أثر صيحة علت من باب كوخها . وبرز إليهم هندي وسيم يحمل ذراعاً رسفها يدى . فدعاهم بلغته للأخذ بثأره . فأسرعوا مهطعين إلى الداعى فدلهم على مكان المرأة «التكطى» فأرسلت عيناها الحمم ، وودت أن تقتله . وأدلت رأسها من النافذة مهددة بقبضتيها : « أحد الهنود على الأقل ! » ورمتهم بالفأس ولكنها أخطأتهم . فأطلقوا عليها الرصاص مراراً ، ولم يصبها ...

والآن قرب الرجال ، فلما أن وجدهم الجريح مسرعين إليه نكص على عقبيه ؛ وأسرع فامتطى الجواد . وجمح يريد اللحاق باخوته ... وضحكت المرأة إذ عمر بكوخها . ثم جاست على الأرض أمامها قدر كبير من دم مسفوح

وعاد الرجال وما لبثوا أن تفرقوا لدى الهضاب : فتبع الهنود فريق فى الأبطح وفريق للحريق ... وعلا الصياح وعمت الضوضاء فى الحى والفوضى . وزاد الصياح لما أن عادت النسوة والغلمان من مكامنهم. كل ذلك وهى جالسة وحدها حتى سمعت هتافاً باسمها . لقد اجتمع الجمع بكوخها ، وقالت المرأة الشاحبة «أين مارى» فأسرعت تهبط الدرج إليهم..

وأسرعت نحوها الشاحبة ، ولكنها صدفت عنها ، وأزاحتها من طريقها . ومسحت وجهها بكم ردائها وقالت :

— هل أدركتموهم فقتلتموهم ؟ أما قتلتم منهم أحدا ؟

فقالت صاحبتها « كلا يامارى ! لم نقتل أحداً » وأجاب ذو اللحية «لا ضرر أصابنا هذه المرة» ..فقالت امرأة العمدة «إلا كوخى فقد أكلته النار ، ولسوف نبتنى كوخاً آخر » فصاحت ذات السواد :

— أنا لا أعنيكم أنتم ، ولكنى أعنى أولئك المردة الهنود ، هل قتلتم منهم أحداً ؟ هل قتلتم أحداً

يا جيم ؟ وأنت يا ذا اللحية : أما قتلت أحداً ؟

فأجاب الرجال : « كلا ! » وقال آخر : « لقد كانت جيادهم أسرع من جيادنا فلم نلحق بهم » .
فقالت المرأة في زهد و كبرياء : « لقد ظفرت بواحد لم أقتله ، ولكني فعلت به أشد مما يفعل القتل ... مهلا ! » ثم اندفعت إلى الدرج ، فتراجعت النسوة مذعورات والرجال يرمق بعضهم بعضاً

وأخيراً عادت ذات السواد ، وفي يدها شيء رمته على النضد . « إنها كف أحد الهنود ... سوف تفسد ذراعه ، فيدعونه يموت على الرمال . أرأيتم كيف عذابي وعقابي !؟» وفزع النسوة واقترب الرجال ، ولكنهم لم يلمسوا الكف البتراء فصاحت بهم ذات السواد :

— أفكنتم تتخذون كلامي هزواً ؟ أفرأيتم كيف تجبنون وتخشون لمسها ؟ !

وأمسكت باليد — باسمة بسمة نصر وازدراء — وفتحت أصابعها ، فوقعت اليدُ على النضد ، وسقطت على الأرض ، وانتسف وجه المرأة وبدت عليها علائم التفكير ... ثم صرخت المرأة صرخة قوية واستدارت نحو الحائط ، بائسة شقية . . . وحاولت المرأة الشاحبة أن تصل إليها ، ولكن زوجها أمسك بها واقترب من المنضدة قليلا ، ثم أمسك بالكف في حذر كثير ... وتردد برهة . ولكنه فعل مثل ما فعلت ذات السواد بخفة ومهارة . فتح أصابع الكف ، وهناك على الراحة قرأ تاريخها ، في حروف بيضاء كبيرة « S. S. 64 » . ثم تذكر الشيخ كيف أتته ماري يوماً تحمل طفلها ! مضمدة يده التي كواها حديد المصطلى الحار ، من عشرين عاماً خلون . كانت اليد إذ ذاك صغيرة ، ولكنها الآن كبرت وتكتلت . وتهامس الجمع : « إنها كف ابنها » ... ودلفوا إلى الباب في سكون وهدوء ... وأخذت الشاحبة زهرة من عروة ثيابها ووضعتها في اليد السوداء على المنضدة . ثم خرجت في أعقاب الرجال والنسوة

لم تقلع ذات السواد عن التحديق في الحائط ، ولكنها قالت : « دعوا اليد مكانها » فأجابها المجوز : « إنها على المنضدة » ثم خرج وأوصد الباب بلطف وخفة ...

واستدارت الثكلى — وقد انطفأ الآن بريق عينيها — فأمسكت باليد ، وحلت عرى الثوب ، فوضعتها على موضع الفؤاد من الضلوع ، ثم أرسلت بصرها يعبر السهل في أثر الركب يستقر عليه وهو يشارف المكسيك

السيد محمد العزاوي

كتابان قيمان

سيظهران في أواخر أغسطس

هكذا تكلم زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

اعترافات فتى العصر

للشاعر الخالد ألفريد دي موسيه

وكلاهما ترجمة الأستاذ

فليكس فارس

من أرسل ٢٠ قرشاً قبل صدور الكتابين عد مشتركا فيرسل له الكتابان إلى حيث يقيم داخل القطر أو خارجه «دون علاوة لأجرة البريد » ، ومن أرسل ٢٥ قرشاً يرسل له أيضاً كتاب « رسالة النبر إلى الشرق العربي » تأليف المترجم — العنوان : إدارة مطبعة البصير بالاسكندرية

نكث الأمومة

أقصوصة مصرية

للأديب نجيب محفوظ

عند ما أخذ قطار الصعيد يهدئ من سرعته كان نور الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلة فضية من ضوء الصباح المنير ، وقد فتحت السيدة روحية هانم عينيها مع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس ، ولبثت لحظة مستسلمة لتراخى النوم ، ثم اعتدلت فى جلستها وأدارت عينيها الزرقاوين الفاتنتين فى أنحاء الصالون حتى استقرتا على وجه الأستاذ عاصم الذى كان يغط فى نوم عميق . فلاحت فيهما نظرة حب وحنان ، وكان من الضرورى إيقاظه لدنو القطار من محطة مصر إلا أنها لم توقظه قبل أن تقوم إلى المرآة الصغيرة الموضوعة بين صورة الكرنك وأجاممنون فتسوى شعر رأسها وتمسح خديها وجيدها بالبودرة المعطرة ... وتنبه النائم على لمس أناملها ذات الأظافر الأهرامية الحمراء ... وكان أول ما مس إحساسه من عالم اليقظة رائحة أنفاسها الزكية وهى تطبع على شفتيه قبلة شهية ... وفتحت النافذة وأطلت منها برأسها الذهبى كأنها شمس تشرق من الأرض ، فرأت بناء المحطة يدنو من بعيد فالتفتت إلى الأستاذ وقالت وهى تتنهد:

« وآسفاه ... انتهت سفرتنا »

فقال لها وهو يتمطى :

« هذه نهاية كل رحلة .. أما الحب فلا نهاية له »

فقالت بصوت جعله الشوق والوجد كلحن من الموسيقى الخافتة :

«أين أسوان أين ؟.. أين خلوة الصحراء تحتوينا معاً ؟ أين جدران المعابد تستر علينا ؟ أين زورق النيل يجرى بنا على سطح الماء؟ أين أنا وأنت لا نفترق ونشهد معاً وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى والأصيل ثم المساء ؟ ... واها .. »

فتنهد الشاب تنهدة هادئة لا كتنهدتها الحارة وقال :

« سنعود إلى أسوان فى الشتاء القادم . أما من الغد فالى عش غرامنا المعهود فى شارع سليمان باشا »

« هيهات أن تعوضنا هذه الساعات التى نتنهبها انتهاباً من ذلك الشهر السعيد الذى كنا فيه جسما واحداً وروحاً واحدة »

وحاول أن يجيبها بمثل حماسها ، ولكن خذلته نفسه الهادئة اللولة فقنع بقوله «صدقت يا عزيزتى» ثم قام إلى النافذة الأخرى ففتحها ، وكان القطار قد بلغ المحطة وأخذ يرسل صفيره المدوى فى جوفها العظيم ، فأرسلا بناظريهما إلى إفريز الاستقبال ، وكان مزدحماً بالجمهور . وسمعت الأستاذ يقول :

« ها هم أولاء ... زوجك وحياة ومدحت »

فقلقت عيناها بين الرؤوس المشرئبة حتى اطمأنتا إلى رأس حياة الذهبى ، فرق قلبها حناناً وتحولت عن النافذة وانطلقت تعدو خارجة والأستاذ فى أثرها ، وعلى الأفريز هرع إليها مدحت وحياة وهما يصيحان : «ماما» فتعانقوا عناقاً حاراً ، ولما تخلصت منهما رأت زوجها الشيخ وهو فى عباءته الفاخرة ، وطربوشه مائل إلى الخلف يبدى عن

شعره الخفيف الأبيض فجمدت عيناها وتقدمت إليه ومدت يدها فسلم عليها واجماً ووضع يده أيضاً فى يد الأستاذ عاصم ... وساروا جميعاً إلى الخارج، الزوج فى المقدمة وخلفه الزوجة بين مدحت وحياة ومن وراء الجميع الأستاذ ... واستقلوا السيارة التى انطلقت بهم فى طريق الزمالك ...

وجلس الزوج وزوجه وحياة فى ناحية وجلس فى الناحية المقابلة الأستاذ ومدحت ، واستطاع عاصم أن يرى حياة عن كثب لأول مرة إذ أنها لم تكن تقابله في زياراته المتكررة لوالديها ، فعجب للشبه العظيم الذى بين الأم وابنتها فلم يكن يفارق بينهما إلا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة ، فكانت الفتاة كالياسمينة العبقة فى الغصن ، وأما الأم فكالوردة الناضرة فى الزهرية ...

وظلوا صامتين جميعاً حتى قال الزوج :

— كيف كانت الرحلة ؟ لعل صحتك تحسنت يا هانم ؟

فأحنت المرأة رأسها وتمتمت « الحمد لله » وقال الأستاذ :

— قل أن تغيب الشمس فى أسوان وهى أنجع دواء للهانم ...

فابتسم الرجل عن أسنان ذهبية صناعية وقال

— يسرنى أن أسمع هـذا ، وعسى أن تسرّا بدوركما لأنبائنا ، فنهنئا حياة بخطوبتهـا القريبة

واحمر وجه الفتاة وخفضت عينيها حيـاء ، والتمعت عينا الأم وبدا عليها الاهتمام ورددت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة :

— هل تمت هذه الخطوبة ؟

فقال الرجل :

— لايجوز أن تتم خطوبة فتاة فى غياب أمها ... ولـكنها ستتم قريباً باذن الله

ونظر الأستاذ إلى الفتاة وقال مبتسماً : «مبروك»

أما الأم فسألت :

— من هو ؟ وأجابها الرجل :

— طلعت، ابن شريكى

وسأل المحامي :

— هل هو موظف ؟ فقال الرجل بزهو :

— نعم ... وكيل نيابة

وأطبقت روحية هانم شفتيها فلم تفه بكلمة أخرى ، واستسلمت لأفكار غامضـة فغابت عن الحاضرين ، وانتهت السيارة إلى الفيلا ودخلوا جميعاً ومعهم الأستاذ عاصم

ولـكنه استأذن بعد قليل وانصرف إلى بيته القريب

* * *

كان السيد محمد بك طلبة من كبار تجار الشاى المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدر بمئات الألوف من الجنيهات؛ وكان في أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين فى حسن التدبير وعلو الهمة والحرص ؛ وبالرغم مما تحفل به حياته من التجارب والمخاطرات، وبالرغم مما صادفه فيهـا من ويلات المحن وفرص النجاح ، فانه ما يزال بعد زواجه أخطر حادث في حياته ، وهذا هو اعتقاده الدفين وإن لم يصرح به ؛ وقد وقع هذا الحادث الخطير منـــذ عشرين عاماً — وهو فى الخامسة والأربعين — إذ كان يقوم بإحدى رحلاته التجارية بسوريا ، وقد التقى هناك بأسرة زوجه

وتعرف إلى والديها ، وكان الأب سوريًا والأم أمريكية . ورأى ابنتهما الشابة الفاتنة ساعة فوقع في حبها وجن بها جنوناً وتحركت في أعماقه غريزته التجارية غريزة الامتلاك فخطبها إلى والديها ولم يستدر ذلك الشهر حتى تم زواجه منها ، وعاد إلى مصر « بأعظم ريح وأجمل امرأة في الوجود » كما قال لنفسه حينذاك ...

وبدأت الحياة الزوجية بنجاح لا بأس به ، وأثمرت على مر الأيام طفلين جميلين مدحت وحياة . فبشر مقدمهما الأسرة بداوم السعادة والعشرة ... ودارت السنون دورة سريعة فوجد البك أنه أخذ يجتاز الحلقة السابعة ، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياة ، ويكتفي من الحب بتذكر أحلامه المنطوية ... وأما المرأة فألفت نفسها في مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب فلم تجمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبناء والأحلام ؛ إذ كان شبابها عنيداً جباراً دائب الثورة على الزمن ... فتصدع ائتلاف الزوجين ، وعجزت شيخوخة الرجل عن كبح هذه الحيوية الثائرة فانكمشت أمام سيلها العارم وخلت لها المنحدر وانزوت مطعونة باليأس مذعنة بالتسليم

واتفق أن كان الأستاذ عاصم المحامي — صديق الزوج وجاره — السبب المباشر في انفجار هذه الثورة الحيوية العنيفة ، وقد تحيرت (صالونات) الزمالك في تحديد علاقته بروحية هانم ، فمن قائلة إن هذا المحامي الجميل ليس إلا صديقاً للأسرة ، ومن هامسة بأنه عشيق الزوجة ومتغفل الزوج ، ومن مؤكدة أنه عشيق الزوجة على علم وتسليم أو — على الأقل — تغاض من الزوج . وظل كل فريق على رأيه حتى ذاع خبر تلك الرحلة الشتوية إلى أسوان التي قيل في تعليلها إن الأطباء نصحوا للهانم بانتجاع الصحة في مصر العليا ، وأن الزوج — الذي تمنعه أعماله في مثل هذا الوقت من السفر — عهد بالزوجة إلى صديقه المخلص المحامي الذي يسافر عادة في يناير كل عام إلى أسوان ... هنالك قطع الشك باليقين واتفقت الآراء ...

وكانت روحية هانم لا تهتم بشيء اهتمامها بشبابها ، فكانت لا تنى عن العناية به والتفكير فيه حتى غدا ذلك وسواساً ومرضاً ينغصان حياتها بالمخاوف والأوهام ، وكانت كلما تقدم بها العمر يوماً تزايدت وساوسها واشتدت مخاوفها ، ذلك أنها كانت تحس في أعماقها ببلوغ قمة الشباب التي لا يعقبها إلا الانحدار ، وكانت تعلم أن شبابها هو سعادتها لأنها بدونه لا تستطيع أن تجذب إليها الرجل الذي تحبه والذي تعلم — مع الألم الشديد — أنها تكبره بما لا يقل عن عشرة أعوام ...

ولطالما تذكر ما قالت مرة امرأة — تعلن لها الود وتكتم العداوة — في مجلس لأخرى وهي تعنيها بالذات من أن النساء اللاتي يحافظن على شبابهن بعد فوات عهده يهرمن مرة واحدة بلا تدرج ... واها ... كم سخرت من رأي هذه المرأة وكم أرجعته إلى الحسد التي تحمله لها ، ولكن لاسخريتها ولا تظاهرها بالاستهانة أفادا شيئاً في مغالبة الذعر الذي استولى عليها والرجفة التي استحوذت على أعصابها ... فغدت كالمجنونة يخفق قلبها جزعاً وإشفاقاً كلما طرقت أذنيها دقات الساعة

وجعلها ذلك في حيرة بين حبها لمدحت وحياة وبين الخوف منهما ، فهما بلا شك لذة الأمومة التي تخفق في صدرها ولكنهما آبتان على كذب شبابها ،

أما حياة فقد بلغت السادسة عشرة من عمرها وهي تخطو إلى النضوج بخطى سريعة تدل عليها معاني العينين ونهوض الثديين ، وأما مدحت فتهذيبه لها أشد إذ أن هذا الشاب ـ الذي لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نمواً خطيراً فهو فارع الطول جاهر الفتوة عريض المنكبين ، والأدهى من هـذا كله غرامه بشاربه ومطاوعة الشارب له ، فالشاب يحب الرجولة ويستزيد منها حب أمه للشباب واستزادتها منه ... وقد كانت حريصة على استصحابه كلما خرجت حتى قالت لها مرة امرأة من صاحباتها : « ما أحرى الذي يراكما بأن يقول ما أسعدهما من زوجين ! » ولم تدر ما إذا كانت المرأة تثني على شبابها أو تغمزه وعلى كل حال لم تستصحب فتاها بعد ذلك أبداً ...

على أنه لاح في أفقها الآن ما يستخف بجميع همومها السابقة ، إذ ما مدحت وما شاربه إلى زواج حياة المنتظر ؟ !

لقد بغتها الخبر ، وكانت البغتة من الشدة بحيث لم تدع لها فرصة للتدبر ولا للتفكير ولا حتى للتظاهر بالفرح أمام ابنتها إذ هما بالسيارة ... فلما ذهبوا إلى الفيللا خلت إلى نفسها بحجرتها معتذرة بتعب السفر ، وفي عزلتها عاودت التفكير في هدوء وإمعان فتوالت عليها الفروض والتصورات ، فهي لا تشك في أنه لولا الحياء لغنت حياة فرحاً وسروراً ، وأي فتاة لا تفرح للزواج ؟ وخاصة إذا كان الشاب في عنفوان شبابه وجيهاً في بحبوحة من الغنى والجاه سيداً في وظيفة تتيه على جميع الوظائف فلعلها باتت تغرد في قلبها أطيار الحب وتحلق في جوها الطاهر أحلامه العذبة ، فهي جد سعيدة بحاضرها ، جد آملة في مستقبلها ، ولا شك أنها تنتظر الآن أن تستعيد أمها راحتها من وعثاء السفر وأن تذهب إليها لتطبع على خدها الوردي قبلة التهنئة فتعلن بها رضاها وموافقتها فتتم الخطوبة وتكمل السعادة

ولكنها إذا فعلت فستغدو الابنة زوجة وتمسي أمّا فتسمع عن قريب من يناديها بقوله : « جدتي » جدتي ! » لقد نطقت بهذه الكلمة الشنعاء فدوت في أذنيها دوي التصويت والنواح فارتج لها جسمها البض وخفق لهولها قلبها العاشق ... وأحست ببرودة الخوف تسري في أعصابها سريان الجفاف في الغصن الرطيب ... وخيل إليها الوهم أنها تجلس إلى مقعد وثير وإلى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام وكأنها تسمعه بأذنيها يهتف بها : « يا جدتي » ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغضن جبينها وغارت عيناها ورق خدها وابيض شعرها ... فانتفضت واقفة وكتمت صرخة رعب كادت تفلت من شفتيها ، وهزت رأسها بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المرعبة ، حتى إذا عاودها اطمئنانها صاحت « أبداً ... أبداً ... لن يكون هذا » ولبثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يحدثه غيابها في نفس ابنتها العزيزة ، حتى ثقل الأمر على البك فاستأذن عليها ودخل ، وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينيه الحادتين وهو يرجو أن تفاتحه بالحديث ، ولما لم يدع له إصرارها أملا قال :

— أرجو أن تكون أسوان قد شفت أعصابك

وأغضبها قوله ، وظنت أنه يتهكم عليها فنظرت إليه نظرة حمراء ، ولما شاهدت عينيه الحادتين وقر في نفسها أنه هو الذي سعى إلى هذه الخطوبة ، وأنه سعى إليها تأديباً لها وانتقاماً منها فهو أعرف الناس بها وأعرفهم — على وجه الخصوص — بما يسرها

وما يسوؤها ، واشتد بها — عند ذاك — الغضب فمضت على شفتها السفلى وأهملت الرد عليه ، فقال كالدهش :

— مالك ؟ لست كعادتك ... والأعجب من هذا أنك لم تفرحى لما بشرتك به !

فاهتاجها الغيظ وقالت محنقة غاضبة :

— لن تتم هذه الخطوبة ...

فبدا على وجه البك الانزعاج وقال :

— ماذا تقولين يا هانم ؟

وأجابته بصوت صارم :

— أقول إنه لن تتم هذه الخطوبة ...

— كيف ؟ ... ولم ؟ ...

— إن (حياة) ما زالت صغيرة السن

— ولكنها بلغت سن الزواج القانونية

— ماذا يفيد القانون إذا كان الزواج المبكر يؤذى صحتها ؟

— لقد تزوجت يا هانم فى مثل سنها ومع هذا فإن كل من يراك يشهد لك بالصحة والنضارة ...

فضربت الأرض بقدميها وقالت محنقة مغيظة

— أنا دائماً أشكو من أعصابى ...

فضيق عينيه ورفع حاجبيه وقال بتهكم :

— ربما كان ذلك لعلة غير الزواج ...

فغلبها الغضب واشتد بها الانفعال وقالت بصوت متهدج :

— باختصار لن تتم هذه الخطوبة ...

ولكن الزوج صر على أسنانه الصناعية وقال :

— لقد أطلقت لك الحبل على غاربه وملكتك حريتك الكاملة وقلت لك منذ عامين « أنت وشأنك » ... ولكنى لم أتنازل عن حقوقى كوالد ولا أفكر فى التنازل عنها ، وإنى لأشفق من أن تضيع على ابنتى مثل هذه الفرصة الذهبية، ولذا فإنى أعلنك — وإنى أعنى ما أقول — بأنى سأعقد هذه الخطوبة ...

فقامت غاضبة وأشارت إليه بيد مرتجفة وصاحت:

— وأنا أؤكد لك بأنها لن تتم ...

فهز الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول « سنرى »

وصبرت الهانم حتى عاودها شىء من هدوئها ثم دعت إليها ابنتها ، وحدثتها حديثاً طويلاً عن حبها لها وحدبها عليها وتوخيها ما ينفعها وإشفاقها مما يضرها ، ثم خلصت إلى ما دعتها — فى الحقيقة — من أجله فأعلنتها بأنها لا توافق على زواجها وأنها ترغب فى تأجيله بضع سنين خوفاً على صحتها، ورجتها رجاء حاراً أن ترفض يد ذلك الشاب وألا تذعن لإرادة والدها ...

وصمتت الفتاة صمتاً بليغاً ، ولاذت به من الرفض أو القبول ، وعبثاً حاولت المرأة أن تخرجها عن صمتها ولكنها فهمت منه ، ومما طالعت فى وجهها من الحزن والاستياء ما أشفى بها على اليأس والقنوط ...

ولبثت الفتاة فى حضرتها ما لبثت ثم غادرت الغرفة ولم تنفرج شفتاها عن غير التحيتين ... تحية اللقاء التى نطقت بها فى مسرة وفرح، وتحية الوداع التى قالتها فى صوت خافت بارد ... وجن جنون الأم وازدادت تشبثاً وعناداً ، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدى . فلما جاء الشاب الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد واضطر البك إلى انتحال الاعذار الكاذبة لها ،

وبذل الرجل مافى وسعه لاقناعها بالتحول عن عنادها وتوسل إليها باسم ابنتها ، ولكنها ركبت رأسها وأبت أن تصغي إليه حتى انفجر مرجل الرجل وأقدم على الافضاء بالحقيقة إلى شريكه — والد الخطيبة — وشكا إليه قسوة امرأته التى تضحى بسعادة ابنتها فى سبيل شبابها الكاذب ... وطلب إليه أن يعاونه على إتمام الزواج — رغم إرادة الأم — إنقاذاً للفتاة من أنانية أمها المتوحشة ...

وذاعت هذه الكلمة التى قيلت سراً فى جميع الأوساط الراقية ، وتحدثت بها (الصالونات) حتى بلغت أذنى الأستاذ عاصم المحامي الذى بلغها بدوره إلى روحية هانم نفسها ولكن لم يكن هذا — ولا ما أصبح يبديه مدحت وحياة من الاستياء والنفور إلا ليزيدها عناداً وإصراراً ... ووجدت المرأة أن كل ما قيل وذاع لم يغن فتيلاً فى عرقلة الساعين إلى إتمام الزواج ، وكانت ترى فى نجاح مسعاهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها ، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع اليائس المستميت واهتدت — فى قنوطها — إلى فكرة جهنمية شريرة لا تخطر على قلب أم أبداً ، وسارعت إلى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب ، فقصدت يوماً إلى عشيقها وطلبت إليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج ، وقد دهش الرجل وحق له أن يدهش وقال لها ...

« وما أنا ولهذا ؟ ... ثم إنه لم تسبق لى معرفة وثيقة بالآنسة حياة فلا أدرى والحالة هذه كيف يجوز لي أن أحادثها فيما هو من صميم شئونها الخاصة ؟ ... »

ولكن المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت :

« حقيقة أنك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ولكنها تعلم أنك صديق والديها ، وقد سمعت فى بعض المجالس ثناء كبيراً على نبوغك في المحاماة فهى لاشك تقدر رأيك حق قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية ... »

فتورد وجه الشاب وذكر وجه الفتاة الجميل الذى سعد برؤيته ساعة فى السيارة صباح العودة من أسوان ، فلم يستطع أن يرفض ولكنه قال متسائلا :

« فكيف لي بمقابلتها على انفراد لأحادثها فى هذا الشأن الخطير ؟ وإذا قابلتها فكيف أفاتحها به ؟ »

فتنهدت المرأة ارتياحاً وقالت :

لقد دبرت كل شيء ، سأستصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات ، وعليك أن تقابلنا — مصادفة طبعاً — فى شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساء ، وتقترح علينا التنزه قليلاً على جسر قصر النيل فأتركها معك واعدة بأن ألحق بكما بعد دقائق ، وتنتظرانني ساعة على الأكثر فان لم أعد تأت بها إلى شيكوريل حيث تجدانني ، وفى أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامى وتفضى إليها برأيك فى الزواج المبكر ... ما رأيك الآن ؟ »

وقبل الشاب بسرور خفى ، فتركته المرأة وذهبت إلى الفيلا على عجل ، وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلماً وكتبت ما يلى بيد مضطربة وبخط جهدت أن تخرج به عن مألوف خطها :

سيدى الأستاذ ...

أنت شارع فى الزواج من كريمة محمد بك طلبة ولكن ينبغى قبل ذلك أن تذهب بنفسك كل

يوم إلى جسر قصر النيـل الساعة الخامسة مساء وخصوصاً أيام الآحاد »

ثم كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيـه ، وترددت لحظة رهيبة ثم نادت خادماً وأمرته بوضع الخطاب فى صندوق البريد ...

وجاء يوم الأحد وخرجت الأم وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ ، وتم لها ما أرادت من تركها معـه ، وذهبت بمفردها إلى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبثت تنتظر حتى حضر الأستاذ وحياة وقد اعتذرت إليهما قائلة :

« أوه ... لقد تأخرت عليكما لأن المحل مزدحم كما تريان . لابأس ، أظن أنه ينبغى أن نذهب الآن . نستودعك الله يا أستاذ ... »

وفى الطريق لازمت المرأة الصمت وقد انتظرت طويلاً أن تفاتحها الفتاة بالـكلام ولـكنها ظلت واجمة كأنها تجهل اللغة التى تتكلمها أمها ، واختلست المرأة منها نظرة فرأتها جامدة باردة لا تعير وجودها أدنى اهتمام فانقبض صدرها وتذكرت — آسفة حزينة — كيف كانت فى حضرتها لا تمل الحديث والضحك والمداعبة ، وضاق صدرها بصمت الفتاة فقالت تحملها على الـكلام :

— كيف كان التنزه ...؟ وماذا قال لك الأستاذ؟

فأجابتها بإيجاز قائلة :

— تحدثنا أحاديث عامة تافهة لا تستحق الاعادة

— وما رأيك فيه ؟

— هو جنتلمان

وكانت ترجو أن تعرف من إجابة الفتاة الأثر الذي تركه حديث الأستاذ فى نفسها ولـكنها لم تستطع أن تدرك شيئاً ...

ولما خلت إلى نفسها ذلك المساء تنهدت وقالت « إن (حياة) لا تحاول إخفاء نفورها منى »

نفورها ! وما النفور إلى جانب ما صنعت هي ؟ أى فعلة شنعاء ! أى إثم منكر ! إنها تعرف نفسها أكثر مما يعرف الناس ، وهي تعلم أنها سيئة التصرف ، كثيرة الأخطاء متسرعة هوجاء ، ولـكن لم يسبق لها أن أخطأت خطأ منكراً كهذا الخطأ . ومالها تسميه خطأ ؟ ولماذا لا تسميه باسمه الحقيق فتقول إثم وجريمة ؟ فهو جريمة شنعاء لأنه ليس أقل من محاولة تلويث شرف ابنتها والقضاء على مستقبلها فى سبيل شهواتها هى . يا للفظاعـة ! لو أمكن فقط أن يبقى هذا سراً مكتوماً ، ولـكنه لن يبقى كذلك لأنها فى الحقيقة وإن كانت فكرت تفكير شيطان إلا أنها دبرت تدبير أطفال ؛ فالرسالة التى كتبت قد تكفل لها فسخ الخطوبة ، ولـكن من يضمن لها ألا يتصل خبرها بزوجها ؟ ومن يضمن لها ألا يسأل الرجل ابنته عما جاء فيها ؟ وإذا صارحت الفتاة أباها بأنها هى — أى أمها — التى تركتها مع المحامى ذلك اليوم فما عسى أن يحدس الرجل ؟

أواه ! قد لا تكترث لغضب زوجها ولـكنها على وشك أن تفقد محبة ابنتها إلى الأبد ، بل ابنها وابنتها معاً لأنه لا مدحت ولا أى ابن فى الوجود يستطيع أن يبر بمثل هذه الأمومة المتوحشة ، وأحست عنداك بقشعريرة تسرى فى جسدها واستولى عليها ذعر لم تشعر بمثله من قبل وباتت فريسة الآلام والمخاوف ...

ولأول مرة منذ أن سمعت بنبأ خطوبة حياة اتجه تفكيرها نحو الخير فودت لو تستطيع أن تكفر

عن خطيئتها ببذل التضحية الغالية وظلت تفكر صادقة مخلصة حتى قطعت عليها تفكيرها الحوادث.

فعند أصيل يوم من الأيام رأت المرأة ابنتها ترتدى معطفها وتتأهب للخروج فسألتها برقة : «إلى أين؟» وأجابت الفتاة قائلة : « إلى السينما » فسألتها بتعجب « بمفردك ؟ » فأجابتها ببرود قائلة : « مع الأستاذ عاصم »

وأصاب الجواب منها مقتلا فاستولى عليها ذهول شديد وقالت دهشة :

« ولكنك لم تستأذنى أحداً ؟ »

فقالت الفتاة بشىء من الجفاء :

« استأذنت بابا وأذن لى »

« وهل طلب الأستاذ البك أن تذهبى معه إلى السينما ؟ »

« نعم »

« متى ... وأين ؟ »

« على جسر قصر النيل ذلك اليوم ... »

وغشيت عينيها سحابة ظلماء فجمدت فى مكانها لا ترى شيئاً . ولما أفاقت كانت حياة قد غادرت البيت ...

وتيقظت غريزتها مرة أخرى ، فطفت على عواطف الخير التى تحركت فى قلبها منذ حين قليل وخنقتها كما يخنق الماء الأجاج الورد اليانع فذهبت تواً إلى زوجها وقالت له غاضبة :

— لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ ؟

فقال الرجل بلهجة تهكمية :

— ولم لا ؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها ؟

فاهتاجها الغضب لتهكمه وقالت وهى تنظر إلى وجهه نظرة غيظ وكراهية

— إنى أعجب من تصرفك هـذا ، أيجوز أن تأذن لها باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها من رجل آخر ؟

فهز الرجل كتفيه وقال

— فسخ الرجل الآخر خطوبته

فخفق قلبها واصفر وجهها وتساءلت : ترى هل علم شيئاً عن الرسالة ؟ واستطرد الرجل قائلا

— عليك تقع تبعـة ذلك يا هانم فرفضك

— وما ذاع عنه — زهد الشاب فى الفتاة

ترى هل اكتفى الشاب بالانسحاب دون أن يطلع زوجها على الخطاب ؟ ليت ذلك يكون !!

وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها

— وقد أخبرتنى حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم ساعة فى قصر النيل فظننت أنك تفضلينه على الشاب الآخر فلما استأذنتنى فى الذهاب معه أذنت لها وقلت لنفسى لا على من هذا، فعاصم شاب جميل ونابغ فى فنه ...

عند ذاك لم تستطع صبراً فولت مدبرة تترنح فى مشيتها كالمصاب فى مقتل ...

وتذكرت المثـل القائل « على الباغى تدور الدوائر » فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما فقدت لتحافظ على حب الرجل وها هى ذى توشك أن تفقد — بمسعاها هى دون غيرها — الرجل وحبه

ياله من ألم ساخر ! ليتها أبقت على الخطيب الأول أو ليتها تستطيع أن تسترده بأى ثمن

ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة . وعند الصباح

حدثت المحامى بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول دائماً « مساء اليوم فى عشنا ... هه » فأجابها بغير ماتعودت أن يجيبها به قال «آسف جداً يا عزيزتى .. أنامشغول جداً هذه الأيام »

وقد صدمها اعتذاره صدمة شديدة وخيب آمالها ولم يفتها مغزى قوله «هذه الأيام» ولكنها لم ترض بالهزيمة فقالت بسخرية مريرة « ومع هذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب إلى السينما ؟» ماذا يستطيع أن يقول ؟ قال إنه بالأمس فقط كان لديه متسع من الوقت أما الآن فلا ...!

ورأت أنه لا يكلف نفسه حتى الاعتذار المقبول ولِمَ يكلف نفسه ؟ إنما يهتم بانتحال الأعذار من يهمه شخص المعتذر إليه ... وقد غدت عنده شيئاً رخيصاً أو لا شيء مطلقاً . أواه ! أهكذا تتقلب القلوب ؟ أهكذا ينسى الانسان ؟ أمن الممكن أن يضحى حب كجبهما ذكرى وحلماً فى لحظة سريعة؟ ألا من تدرج ؟ ألا من رحمة ؟

ولم تنقطع منذ ذلك اليوم المقابلات بين حياة والأستاذ عاصم وشاهدتهما معاً متنزهات القاهرة وخلواتها وملاهيها حتى توقعت الأم يوماً بعد يوم أن يتقدم الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكنه كان أحزم من أن يرتكب مثل هذه الهفوة لأنه كان خبيراً بأخلاق روحية هانم عليها بطباعها وعنادها وغرامها به فرسم فى عقله خطة محكمة وعزم على تنفيذها بارادة لا يثنيه عنها شيء . ولبثت روحية هانم فى حيرة من أمرها تعانى أشد الآلام النفسية والقلبية ، وتأسى بكراهية ابنتها لها وتحديها لعواطفها ، وتتمزق إرادتها نهب الأمومة المحتضرة والأهواء العنيفة، حتى كان مساء لا ينسى إذ دخل عليها زوجها يهز خطاباً فى يده ثم يرميه فى حجرها وهو يقول بلهجة الغاضب :

« اقرأى وانظرى ... أى جرأة ... »

فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطير وقلقت عيناها بين الأسطر الآتية :

سيدي المبجل

يصلك هذا الكتاب ونحن نستقل القطار الذاهب إلى بور سعيد حيث نبحر إلى أوربا أنا وعروسى — كريمتكم — لقضاء شهر العسل وإنى أقر آسفاً بأنه لم تجر العادة بأن تعقد الزيجات على هذا المثال الغريب ، ولكن الظروف الدقيقة التى لا تجهلونها لم تدع لى فرصة للاختيار ، وإنى كبير الأمل فى أن تقدروا سلوكى تقديراً عادلاً ، ولست أقل أملاً فى نيل عفوكم القريب .

ودمتم للمخلص

عاصم عادل

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن بصرها فظلت منكسة الرأس لا ترى شيئاً ولا تعى شيئاً والقنوط يتسرب إلى قلبها كالغاز السام ، ولم تحاول قط أن تقاوم نفسها المنهارة أمام زوجها كأنها نسيت وجوده نسياناً تاماً ، وكان الشيخ يحدجها بنظرة قاسية متشفية ، فلما وجدها تتهدم وتضمحل ولاها ظهره وذهب

ولبثت فى غيبوبة الحزن حيناً طويلا ثم رفعت رأسها الثقيل فوقع بصرها على صورتها فى المرآة فارتاعت وجفلت لأنه خيل إليها أنها ترى مجالها يذوى وينضب وتغشاه سيما الهرم ...

نجيب محفوظ

المجنونة

للكاتبة الفرنسية ماري بسنيري

للسيد صلاح الدين المنجد

كانت تغنى أنشودة أخذتها عن أمها برقة وحنان وترنو إلى السماء الصافية صفاء الأمل الباسم ، وتنظر إلى سفير الأشجار المبعثر على حفافى الطريق ... وتصغى إلى الذكرى تهمس فى أذنها حديث الماضى إذ رحل زوجها إلى الجزائر ليرفع فيها العلم الفرنسى الجميل ، ويقهر أبناء الشمس الجبابرة الأشداء

وأغرقت فى صمت عميق ملؤه الغموض والحيرة ثم راحت تناجى نفسها وتقول : « عجبت أشدّ العجب لمن يزعم أن الحياة هى منبع الألم ومصدر الأسى ... ألا ينظرون إلينا كيف نعيش فى رخاء من العيش راضين مغتبطين لا يعرف الشجو إلينا سبيلاً ؟ أو لأولئك الذين يحيون حياة تموج بالنعيم وتشرق بالبشر ... لا يفقهون للشقاء أو الحزن معنى ... أما لقيت برنارد بعد أن ابتلع اليمّ أبى ، وماتت أمى حزناً عليه ، فأحببته وأحبنى ، والتقت أحلامه بأحلامى ، وتمنينا على الأمانى ثم زففت إليه ؟

كنت أتمنى أن تكون لى دار إليها آوى ، وزوج أفضى إليه بحديث قلبى ، وطفل أدخل السرور بمرآه لنفسى .. فرزقت الزوج ، وشُيّدت الدار ، وجاء الطفل وابتسمت لنا الحياة ! ... »

وأرسلت زفرة عميقة وهى تقول : « ساء ما يزعمون »

كانت جورجيت تحس السعادة وتشعر بالغبطة ما ينغص عيشها إلا أن زوجها بعيد عنها ما تراه ولا يراها ... إنها لتذكر ذلك اليوم الذى دخل فيه عليها ، وقال بصوت هادئ حزين : « سأذهب إلى الجزائر يا جورجيت مع رفاق صباى ، لنرفع هناك علمنا ، ونمكن الأمر لرئيسنا ... فلا تبك يا عزيزتى ، لقد وُعدت أن أكون قائداً إن أحسنت البلاء ... ثم أعود إليك بعد حين راضى النفس ، مطمئن الخاطر ... لا تبك يا عزيزتى ... لن أمكث هناك إلا قليلاً ... إلى اللقاء ... » ولكن ها هى ذى خمسة أعوام تمر وبرنارد لا يزال بين أبناء الشمس الأقوياء ...

وكانت نفس جورجيت تفيض أملاً بالحياة والرجاء . لقد رزقت الطفل فنشأته بعناية وعطف وربته برأفة وحنان، ولم تدع لليأس سبيلا إلى قلبها، ولم تترك للحزن مدخلا إلى نفسها . وكان برنارد يحدثها فى رسائله اللاهبة بالحب ، الطافحة بالشوق، المملوءة بالقبل ، أحاديث تبعث فيها النشوة والفرح ، فتنتظر بصبر وثبات . كان يحدثها عن الطبيعة الفاتنة التى تستهوى النفس وتسحر الفؤاد ، شأن كل ما فى الشرق ، وعن أولئك الجزائريين الذين عشقتهم الشمس فغمرتهم بفيض من قُبلها اللاذعة ، وتركت آثار تلك القبل على الوجوه ... وكان يحدثها عن تلك المساجد ذات المآذن التى تناجى الله ليل نهار ، وتلك المحاريب التى رُصّعت بالجوهر وازينت بالفسيفساء ، وتلك الصحراء التى غمرها النور فراحت تبسم وتضحك ... وكان يحدثها أيضاً عن التلاع التى رأوها ، والجبال التى صعدوا فيها ، أو يذكر لها ما رآه فى نلمسان القائمة بين غابات الزيتون ، وفى قسطنطين ذات الأبنية العتيقة التى شُيّدت فى عالم قديم قد ابتلعه العدم

وكانت جورجيت تعشق الشرق وترهبه ... كانت تعشقه لأنه كان مسرحاً لأروع الحوادث وأعظم المغامرات ، لأن فيه تلك الحدائق المسحورة كما يقولون ، وتلك القصور الفاتنة التي تمتزج فيها نغمات الناي بآهات الحب وأقاصيص الحرب . . . ثم لأنه سيكون سبباً في نجاح زوجها وطريقاً إلى مبتغاه . وكانت ترهبه لأن فيه قوماً مغاوير يبتلعون الجن ولا يخافون ... فكان يساور نفسها قلق ملح وشك عميق ، ويستولي عليها من آن لآخر الخوف والذعر فتتمنى رجوع زوجها ، لتعيش في كنفه ، وتتمتع به ، وتحيا بقربه حياة آمنة ناعمة براحة وسكون ...

* * *

— يا سيدتي ، ياسيدتي ، لك رسالة من الجزائر

فهبت جورجيت يفتر ثغرها عن ابتسامة حلوة ترقص حولها المنى واندفعت نحو الباب ، ونفسها تطفر من الفرح وتنزو من النشوة ، لأنها ستسمع اليوم حديثاً عذباً ممتعاً ... وجاء ساعي البريد يقدم رسالة ختمت بالشمع الأسود ، فتراجعت وهي تقول:

— ليست لي ... ليس هذا خطه ... إنه خط طفل حديث عهد بالكتابة ...

قالت إحدى صواحبها :

— خذيها يا ابنتي فإنها لك . من يدري ... ربما أصبح برنارد قائداً ... ربما أنعم عليه بوسام الصليب ... ربما ظهر جنودنا على أولئك الشرقيين وخذلوهم ، خذيها يا ابنتي ... !

— آه ! ليعود إلي ، تلك أمنيتي يا أختاه ...

وأخذت جورجيت الرسالة بيد مرتجفة ، وقلب خافق ، وعادت إلى غرفتها فإذا بوليدها يمتطي حصاناً من الخشب ويقول :

— أماه ! أماه ! ألا تذهبين إلى الجزائر ...

فغشي وجهها العبوس ، ثم مزقت الغلاف قلقة مرتابة وقرأت :

« سيدتي ... ...

أنا لا أعرفك ... بل أعرفك كثيراً ، لأن صديقي برنارد كان يحدثني عنك أحياناً ... أواه ياسيدتي ! إن الحرب لمصيبة كبرى ... إنهم يرسلوننا لنفتح البلاد ونؤدب العصاة ، ويقدموننا للموت . ما أتعسنا ! من يفكر بنا نحن الذين ندفع دماءنا ثمناً للنصر ... من يردد أسماءنا أو يذرف الدمع من أجلنا إن غيبتنا رمال هذه الصحراء المرهبة ؟ ومن يرسل الآهات إن أطفئت شعلة حياتنا على هذه السرر الخشبية التي شهدت مصرع الألوف قبلنا ... ؟ »

فاستوحش قلب جورجيت ، وانقبض صدرها وقالت :

— لكن .. لكن أنا لا أفهم عنه ما يريد .. وتابعت القراءة

« ما أدري ياسيدتي كيف أكتب إليك .. وما أدري كيف أخبرك بما وقع لزوجك . . ولكنني أقسمت أمامه لأخبرنك ... إصغ إلي ياسيدتي : في موقعة قامت بيننا وبين هؤلاء الجزائريين ، وقع برنارد جريحاً يترسب في دمه . فضمدت جراحه ، ولكنه بقي متألماً أشد الألم . لا يأكل إلا قليلاً ، ولا ينام إلا لماماً ، وكان يفكر بك ويحدثني عنك . فأرسله قائدنا الأعلى ليعيش تحت الخيام ، ويستجم من العناء ولكن وآسفاه ! لقد أصابته الحمى .. الحمى التيفيه التي لا ترحم أحداً هنا . فصبراً ياسيدتي ، عيشي لطفلك الصغير وأفيضي عليه حنانك ورحمتك ، وتعهديه بعطفك ورعايتك فهو خير عزاء لك.. إن برنادد قد مات .

جوزيف د ...

فشدهت جورجيت ، وجحظت عيناها ونادت:

— مات .. ؟ مات .. ؟ كلا من المستحيل .. أيموت برنارد وهو في نضارة الصبى وبكرة الشباب ؟ أيموت وقد كان قوى الأيمان بالحياة ، عظيم الأمل بالسعادة ؟ .. أنا لا أصدق .. إن هـذا إلا كذب ومين .. !

وراحت تبكى بكاء محزناً تتفطر له القلوب ، ثم نظرت إلى أسفل الصفحة فاذا فيها كلمات مرتعشة عليها علائم قطرات من الدمع . فقرأت :

« عزيزتى جورجيت ! لقد حم القضاء .. إنتهى كل شيء ! آه ! لن أراك ياعزيزتى أبداً ، ولن ترينى .. أنا أموت ... وداعاً جورجيت ... وداعاً طفلى .. وداعاً .. أيها الأحباء .. ! » برنارد ...

وتفجر الدمع من عينيها .. وراحت تلطم الوجه وتعول ، وتنادي وتصرخ ثم تئن وتقول :

— أوّاه ! أواه .. هاهى ذى النواقيس ترن ، فيملأ الفضاء رنينها ، تعلن أن غداً يوم الأموات !

أوّاه ! إن المقابر ستكون غداً مليئة بالناس ، يحملون طاقات الورد وعناقيد الزهر ، لينثروها فوق القبور ، ويذكروا الأهل والأحباب !

أما برنارد ، فواحسرتاه .. ! إنه ينام هناك .. فى الصحراء .. فى ظلال النخيل .. وحيداً لا صديق بجانبه ولا حبيب !

أوّاه ! إنه لصعب أن يذهب المرء وحيداً إلى عالم مجهول !

أصحيح أن برنارد قد مات ؟ هه ... أهكذا قُضى علينا نحن ... أن نعيش فى الظلمة ... بصمت وسكون ... ما نكاد نتذوق طعم الهناء حتى نرزأ ، أو نعرف معنى السرور حتى نُصاب ؟

لكن ... كيف يموت برنارد ... ؟ كلا إنه لم يمت ... ! أنا أعلم ذلك ... أتخونني الحياة ... ؟ ألا تخاف مني ؟ أنا جورجيت ... ! مات ... هه ... سأحطم كل شيء من أجله . خذوا ... أنظروا أيها السادة ... أناقوية ... خذوا ... وانظروا ... !

وراحت جورجيت ترسل أصواتاً حزينة كخوار الثيران ... وأخذت تطوف بالغرفة تهذى وتصرخ ، ثم عمدت إلى المنضدة فحطمتها ، وإلى الكتب فمزقتها ... وأشعلت النار في الأثاث ... والتف حولها نسوة حاولن أن يهدئن من اضطرابها فما استطعن ، فبكين لبكائها ... ورثين لها . ثم أمسكت طفلها ورمت به الأرض فشج رأسه ؛ وهبطت إلى الشارع تبكي وتضحك وتنادى . الانتقام الانتقام . وهكذا سلب عقلها ، وأصبحت ما بعارفها الجنون إلا ساعة فى النهار أو بعض ساعة ، تقضيها فى البكاء أو الصمت ... فاذا ما عاد إليها جنونها قامت تنفث وتضحك ... وتكلم الهواء وتستصرخ المارة وتتوعد بالانتقام .

* * *

ما أدرى كيف انتهى بها الطواف إلى الجزائر وما أدرى كيف استطاعت ذلك ... وأكبر ظنى أن سفينة أوصلتها رحمة بها وشفقة عليها . ولقد حدث من رآها بأنها منذ وطئت أرض الجزائر عوّلت على الانتقام من أهلها . وكانت ترود ما أقفر من الأماكن وأوحش من الجبال ، وتتوغل فى الصحراء ، وهى تنوح وتبكى ، أو تسب وتشتم . ولقد حاول نفر من بنى جنسها أن يكلمها فما استطاع وأراد إرجاعها فأخفق . رأوها بعد أيام عادية نحو جوف الصحراء وقد تمزق ثوبها وعريت أقدامها ، وانتصب شعر رأسها ، وهى تضحك لمن تراه وتقول : إنه ينادينى ألا تسمعون ؟ فارجعت بعد ذلك اليوم وما رأوها أبداً

مسكينة ! لقد غيبتها رمال الصحراء !

صنوع السيد المنجد

الكأس وقطعة النقود

للأديب مصطفى صبحي

هي قصة سمعتها من صديق منذ سنوات ثلاث بقيت في نفسي طول هذه المدة . وقد حاولت أن أكتبها قبل ذلك ، ولكنني كنت دائماً أؤجل كتابتها إلى وقت أكون فيه صافي النفس مرتاح الفكر حتى لا تخرج الفكرة مضطربة ، وحتى أستطيع تحليل كل مواقفها بدقة . وكنت كلما عاودتني ذكرى حوادثها وحاولت أن أمسك القلم ينحدر بي التفكير إلى نواح أخرى من الحياة فاذا أنا تائه في الخيال ، وإذا العواطف تجيش والمشاعر تختلج ، وإذا العقل يزدحم بالأفكار ، وإذا القلم يسقط فأذهب في ملل وصدوف ... ملل من كثرة التفكير ، وصدوف عن الحياة المتشابكة المزدحمة بكل شيء ، بالأفكار وبالأناسي وبالمادة التي تتدفق وتسخر من الناس والناس يعبدونها ويطأطئون لها الرؤوس

قال لي صديقي إن القصة حقيقية وأكد لي ذلك . وكنت قد ظننت أنها قصة خيالية اختلقها قصاص ماهر ، ولم تقع حوادثها فعلا في الحياة ، إلا أن وجودها في ذاكرتي كل هذه المدة جعلني أصدق أنها حقيقية وأتصور أنني عرفت أشخاصها واحداً واحداً من مدة طويلة وشهدت كل ماحدث لهم ، وعرفت الأمكنة التي وقعت بها حوادثها حتى ليخيل إليّ أنني أستطيع أن أزور هذه الأمكنة التي أصبحت معبداً للذكرى ووحياً لشعر حي رفيع

هو الحب أيها الأصدقاء الذي سيلعب دوراً كبيراً في قصتي . ولعل أحداً منكم لم يسأم بعد الحديث عن الحب ، إن كان منكم الشباب فان قلوبكم عامرة به ، وإن كان منكم الشيوخ فان القلوب فتية لا تهرم

فاسمعوا ، اسمعوا أيها الأصدقاء ... انظروا إلى ذلك الشاب الذي جلس أمام مكتبه بعد منتصف الليل كما أجلس أنا الآن تماماً . إنه يزيح الكتب المبعثرة أمامه ويفسح ما بينها مكاناً يتسع لورقة ليكتب فيها خطاباً

إنه قد مل هذه الكتب التي أمامه . هذا كتاب في القانون المدني وآخر في القانون الجنائي وهذا في اللغة اللاتينية ، وهذا في الشريعة ، وهذه قصة لأحد الكتاب الكبار المحدثين ، وهذا معجم وهذا ... وهذا ... أشياء لاعد لها ، كلها قد سئم منها ، فانعطف يتلهى بكتابة خطاب إلى ماجدة قال فيه:

— أحقاً أنت سعيدة يا ماجدة بزواجك من الدكتور ؟ لعله عالج جراحك التي طالما حدثتني عنها أن مقرها في قلبك أليس كذلك..؟ بربك قولي: لا. قولي إنك لا زلت تذكرينني ، وأنك لا زلت تفكرين في ، وإن هذه التعاسة ما هي إلا من معاكسات الأيام وسوف يكون قلبي لقلبك وروحي لروحك ، ولو أن الأجسام بعيدة

سمعتك تقولين في حيرة وابتسام لم أفهم ماذا يختبئ وراءها : « لم لا يا أحمد ؟ أنا على واجب ، وما حصل إنما هو فعل القدر ، ويجب أن تكون عاقلا. »

ثم هربت من أمامى مسرعة لا تلوين على شئ . أقد تغيرت بهذه السرعة ؟ كلا . . لا أظن . أنا أعلم أنك توفين الواجب حقه . أنا أفهم الموقف جيدا ، ولكنى لست فى كل الحالات هادئا كما أنا الآن . أنا ياماجدة فى بعض الأحيان أثور وأصخب وأحطم الدنيا بأسرها . أمزق العالم . أنا وحش عند ما أثور لأنى أخفقت فى حبى ، لأن وردة حبى ازهرت لكى يقطفها الآخرون ، لكى يقطفها من ليس له قلب بيد جشعة مرتعشة كلها الأنانية والمادية .

كلا ياماجدة . لا واجب هناك . سأحطم التقاليد . سأحطم هذا الواجب الذى حدثتنى عنه منذ أيام بعد زواجك . سأحطم كل شئ وسوف ترين »

كتب هذه الكلمات الأخيرة بسرعة وبيد مرتعشة عصبية ، وقد هاج شعوره فى هذا الصمت الشامل وكادت دموعه تطفر من عينيه عند مارآى حالته الراهنة . حياة غير مستقرة ، ودراسة متواصلة مضنية ، وإخفاق فى الحب ، وتمرد على الدنيا وعلى التقاليد والحياة والقيود الاجتماعية . ألقى القلم وسرح فكره فى عالم آخر . وفجأة سرت فى السكون نغمة حنون من منزل بعيد فأنصت إليها . إنها تضطرب كأنها شجون الليل بيديها بلا تكتم . إنها تتعالى فتتعالى بالنفس وتسمو بالقلب والعاطفة والحب ، وتعبر عن معان أخرى لا يعبر عنها بالألفاظ ، فهى معان مبهمة إن عبر عنها بالكلام فسدت وقل مالها من روعة وجمال .

خفت الصوت وتلاشى فى الفضاء ، وبقى أحمد ساهما يردد فى ذاكرته النغمة الحنون ، فهدأت نفسه ونظر إلى الورقة التى أمامه وعاد إلى القلم وكتب :

« كثيرا ما رجعت إلى نفسى أحاول أن أوحى إليها أننى أستطيع أن أعيش بدونك وأن أنساك إلى الأبد ، وكم أكون سعيدا لو استطعت ، إلا أننى لا أستطيع ياماجدة أبدا . كما أننى لا أنسى هذه الفترة التعسة من حياتى ، فترة الخيبة والضعف . الضعف إلى درجة أننى لم أستطع أن أغير شيئا وأنا أرى الدكتور عبد المجيد يتقدم طالبا يدك ، فيغرى أباك ، فيقبل هذا أن يبيعك إليه مغترا بمركزه وماله ، ذلك الطبيب العربيد الجبان ؛ وأنت لم تستطيعى مطلقا أن تنبسى ببنت شفة ، ولم تستطيعى أن تحركى ساكنا ، فقدموك إليه جسما إلى جسم لا قلبا إلى قلب . »

شعر أحمد بضيق فى تنفسه فسعل سعالا حادا خفت وطأته شيئا فشيئا وظهر على عينيه أثر من الدمع فأخرج منديله ومسح به أجفانه وجبهته . وظل هادئا فترة قصيرة من الزمن . فظهر فى السكون صوت حركة خفيفة أعقبها صوت والدته تقول فى نغمة متعبة وسنى :

« قم ياأحمد إلى فراشك . يكفيك هذا السهر يابنى . قم هداك الله واستبق المذاكرة حتى الصباح فالنهار طويل »

مرت فترة سكون طويلة ولم يرد أحمد بكلمة . وبقى صامتا ينظر إلى حجرة النوم المجاورة ، فعادت أمه تناديه : أحمد . أحمد . . وكان الصوت يتردد فى الردهة فيرجع صداه ويملأ المكان روعة ورهبة . فرد أحمد بصوت ممتلئ فيه رنة الاستياء :

— نامى أنت يا أماه . دعينى أقرأ قليلا فأنا لا أستطيع القراءة إلا فى الليل . إنى أنام أكثر النهار فنامى أنت واستريحى

— وهل يعجبك أني أظل قلقة هكذا طول الليل ؟ أنا لن أستريح إلا إذا نمت . قم يا بنى أراح الله قلبك

فأطاع أحمد رغبة والدته ورد عليها باستياء : « هأنذا قمت »

وقام وأدار زر الكهرباء فساد ظلام ولم يبق إلا نور ضئيل منبعث من مصباح صغير فى الردهة . وذهب إلى فراشه ونام

ظل يفكر — وهو مضطجع على ظهره — فيما قالته له والدته . وفكر فى حنانها وفى الخشونة التى قابلها بها وندم . وقال فى نفسه : إن حنان هذه الوالدة المسكينة كثيراً ما يسبب له شقاء وقلقاً . فهى لا يهدأ لها بال ما دام سهران ، ولا يمكن أن تنام أو تستقر على حال إذا كان خارج المنزل ، أو إذا تأخر عن ميعاده ساعة . وهو يتألم من ذلك؛ وكثيراً مايثور فتهدى هى من ثورته وترجعه إلى نفسه وتحاول إفهامه ما تعانيه من التعب إذا غاب عنها لحظة قائلة : « يا بنى أنت لا تعرف ما هو قلب الأم » ثم تعقب على ذلك بأمثلة عامية لها موسيقية لذيذة صادرة عن براءة وصدق

تذكر قولها « قم يا بنى أراح الله قلبك » وقال فى نفسه : هل يمكن أن يجاب هذا الدعاء وأين لقلبه أن يستقر ؟ إنه لا أمل له في الحياة بعد ذلك ، لقد فقد كل شىء فى هذه الدنيا

* * *

قضاها ليلة كباقى الليالى كلها أحلام متقطعة لا معنى لها . وقام في الصباح وكان أول شىء فكر فيه هو حادث زواج ماجدة من الدكتور عبدالمجيد، ماجدة التى تعبده ... ماجدة التي عاهدته على ألا تكون لغيره وأن تخلص له مدي الحياة . وقف بجانب فراشه واتكأ على حافته ووضع يده تحت ذقنه وراح يفكر . ما قيمة الحياة ؟ إن كل هؤلاء الناس ليسوا سوى أشباح قصيرة العمر تروح وتجىء ولا تعرف إلى أين المصير . تحركها العواطف ثم تندثر فى النهاية كأنها ما كانت ، فيستوى الطيب والشرير والجميل والقبيح والمحب والجامد القلب . وما هو الحب ... ؟ ولماذا لا يكون طوع إرادة الانسان إذا أراد كره، وإذا أراد بدل حبيباً بحبيب ؟ وما هو الوفاء ... ؟ إن كل هذه الألفاظ أصبحت لا معنى لها . ألفاظ جوفاء خاوية لا تحوى وراءها إلا الرياء والكذب والمخاتلة

حاول أحمد أن يطرد هذه الأفكار من رأسه فمشى بكسل إلي مكتبه فوجد الخطاب الذي كتبه بالأمس ماتى عليه كما كان . فتناوله ومزقه ببطء ، وألقاه بدون اكتراث كباقى شيئاً بالياً ، وخرج إلى الردهة وجلس نصف جلسة على منضدة تجثم فى منتصفها وتناول سيجارة وأشعلها وصار يدخن ؛ وكان فكره يجول مع الدخان المتصاعد فوق رأسه وهو ينظر إليه شارداً ، وفجأة سقطت السيجارة من يده على ردائه فأخذها بسرعة دون أن تحرقه وصار ينظر إلى ثوبه ويثبت فيه النظر ثم أشار بيده إشارة استهتار وقال في نفسه إن هذه القيود التى فى هذه الدنيا ليس لها أى معنى . يجب أن يتحلل منها . يجب أن يصل إلى الحرية والحق والعدل

* * *

وسبح فكره بعد ذلك في الماضى البعيد ، ومرت على ذاكرته كل أدوار حياته منذ أن كان طفلا يسكن مع والده فى حى محرم بك فى الأسكندرية

بجوار منزل محمود عاصم بك والد ماجدة — وكان إذ ذاك أحد كبار موظفى مصلحة الجمارك — لقد كانت أياماً سعيدة تلك الأيام التى قضاها فى تلك البقعة المقدسة ... أيام الطفولة المرحة . أين هى .! لقد ولت كأنها حلم جميل من أحلام الملائكة . أين تلك الأيام الجميلة المرحة حينما كان يلعب هو وماجدة وباقي الأطفال فى حديقة منزل والده ، أو حينما كان يغمض عينيه ويجرى ليبحث عنها بين أركان الحديقة وزواياها ، أو حينما كانا يذهبان معاً لشراء الحلوى من السوق الذى كان خلف محطة الأسكندرية القديمة — تلك الحلوى التى كانت ماجدة تحبها كثيراً لدرجة أنها أحدثت تآكلاً فى أسنانها زادها حلاوة وملاحة وجعل فى كلامها لثغة جميلة محببة ، أو حينما كانا يلقيان أسنانهما القديمة إلى الشمس لكى تنبت بدلها أسنان من الذهب . إنه لا يزال يذكر تلك الأيام السعيدة الجميلة ويذكر ولعه باللعب معها فى أيام الشتاء ، فقد كانا يقفان تحت شجرة من أشجار الحديقة ينصتان إلى زقزقة العصافير وينتظران نزول المطر ، فيجريان حينئذ فى أنحاء الحديقة فى فرحة وابتهاج ويجرى وراءهما البواب العجوز ويحملهما إلى داخل المنزل والمياه تتساقط من شعرهما ووجنتيهما وملابسهما على الأبسطة وهما فرحان بهذه المخاطرة المرحة الجميلة ولما شاهداه من مناظر الشتاء البديعة الساحرة

ذهبت هذه الأيام وكأنها كانت نغمة حلوة هادئة لم يعكر صفوها شئ ، ولكنها الآن أصبحت ذكرى ، إلا أنها ذكرى تثير الأسى وتبعث الآلام . أين أبوه وأين ثروته التى ضاعت ولم يبق منها إلا ما يكفي لسد نفقاته هو ووالدته التى بقيت له فى هذه الدنيا ؟ مات أبوه وكان تاجراً من تجار الثغر ولم يكن هناك أحد يحل محله فى تجارته ، وكان أحمد إذ ذاك فى الرابعة عشرة وكان لا يزال طالباً فلم يستطع أن يقوم مقام أبيه

كان والده يحبه فقد كان أمله الوحيد فى حياته . مات وهو يباركه ويدعو له ، وكانت آخر كلمة قالها وهو على فراش الموت « جعلك الله يابنى سعيداً فى الدنيا والآخرة »

تزاحمت هذه الذكريات فى رأس أحمد وهو متكئ على المنضدة وجعل يقرأ فى سره الفاتحة لأبيه وقال فى نهايتها « يارب ارحمنى وتقبل دعاء أبى واجعلنى من السعداء »

ترى أيستجيب الله هذا الدعاء؟ أجل إنه رحمن رحيم . ولكن كيف يسعد وماجدة الآن أصبحت لغيره؟ أتراها تغيرت عليه بعد أن مات والده فلم تعد تحبه ؟ لقد نقل والدها إلى وظيفة أرقى من وظيفته فى وزارة الداخلية بالقاهرة ، وبعدت ماجدة عنه فترة من الزمن ، إلا أنها كانت تأتى مع والدها لتقضى فصل الصيف فى الأسكندرية ، ولم يلاحظ عليها إذ ذاك أى تغير في عواطفها

كانت هى عزاءه الجميل . وإن نسى فلن ينسى تلك الأيام التى كان يقضيها معها فى أيام الصيف على شاطئ « جليم » وقد أصبحا شابين اكتمل عقلاهما ونسيا نزق الطفولة ورعونتها . لقد كانت هي كل شيء لديه . امتلأ قلبه بحبها حتى لم يبق به فراغ لأى شيء آخر فى الوجود . وقد آمن بهذا الحب وثبت إيمانه بقلبه فما عاد يصدق أن ذلك الحب سيخبو وتبرد شعلته ، وما كان يصدق أنها ستكون فى يوم من الأيام لأحد غيره

جد واجتهد حتى نال شهادة الدراسة الثانوية ، وسافر هو ووالدته إلى القاهرة واستأجرا منزلها الذى يقطنان به الآن والتحق بكلية الحقوق ، وكانت ماجدة طالبة فى كلية الطب . وكم كان سعيداً لوجوده معها فى بلد واحد ، وكم كانت جميلة هذه الأيام التى قضاها معها في القاهرة لولا ذلك الدكتور الذى ظهر لها فجأة واختطفها منه

لقد كان أبوها رجلا لا يعرف معنى العاطفة ، وكان قاسياً شديداً على ابنته فلم تستطع أن ترفض هذا الزواج أو أن تنطق بكلمة واحدة . وكان أحمد قد ذهب إليه عند ما علم بالخطبة وطلب منه يد ماجدة رغم أنه لا يزال طالباً ورغم أنه فقير لا يملك شيئاً ، فرفض طلبه ورده والأسى يكاد يفتك به واليأس يكاد يقتله

هكذا كان القدر ، وما ذا يفعل إذن ؟

عبثاً حاول أحمد أن يوقف تيار هذا التفكير ، فقام وأدار الراديو وكان اليوم يوم جمعة فسمع صوت القارئ يرتل قوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً) وكان صوت القارئ عذباً جميلا وكان يرتل هذه الآيات بإيمان وإخلاص أثرا فى نفس أحمد . فعقب على قول القارئ بصوت ملئ بالخشوع والايمان « صدق الله العظيم » واستمر ينصت إلى آيات القرآن الكريم فوجد فيها عزاء عظيما وذهبت عنه بعض أحزانه وأتى موعد الصلاة فقام وتوضأ وذهب إلى المسجد ليصلى

* * *

وقف الخطيب على المنبر وصار يخطب فى الناس بصوته المتماثل النغمات والناس يسمعون كلماته فى صمت وخضوع . وكان أحمد ينصت إليه بانتباه كأنه متشوق لسماع شيء جديد هو فى حاجة إلى سماعه ، ورن فى أذنه صوت الخطيب وهو يقول : (يا أيها الناس لا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق. وإياكم والزنا فانه جرم لو تعلمون عظيم)

وفى هذه اللحظة التى كان أحمد ينصت فيها إلى بقية الخطبة كان الدكتور عبد المجيد جالساً فى منزله على مقعد كبير مكسو بالجلد فى ردهة مفروشة بأثاث هو على بساطته آية فى الأناقة وحسن الترتيب ، فدخلت ماجدة من باب مقابل فنظر إليها طويلا نظرة عطف يداخلها شيء من الشك ولكنه مستور وراء حجاب من المكر

وبادرها بقوله :

— مالك يا ماجدة ؟

— لاشيء

— إياك أن تكونى متكدرة لأننا لم نسافر لقضاء شهر العسل فى بلد بعيد . إذا كان الأمر كذلك فانك جد مخطئة ، فأنا عازم على تقديم مفاجأة مدهشة جداً لك (وضحك ثم مد لها يديه وقال)لك أنت ياحبيبتى يا أعز مخلوق لدى (واقترب منها وهو يقول) كنت عازماً على ألا أبوح لك بهذه المفاجأة ، ولكن ما دمت متكدرة فسأقولها لك الآن (وضمها إلى صدره وقبلها) إننا سنذهب عندما يأتى شهر مايو إلى سويسرا رأساً لنقضى فيها شهر العسل ثم نرجع فى طريقنا إلى فرنسا وإيطاليا واليونان . وربما ذهبنا إلى لبنان حيث نعود بالطائرة فهل أنت مسرورة من هذه الرحلة؟

— أنا لست متكدرة أبداً وحتى إذا كنت

متكدرة فأنا لا أتكدر من شيء مثل هذا ، فأنت لديك أعمالك، وليس من الضروري أن تتركها في هذا الوقت، فدع هذه الرحلة لفرصة أخرى فالفرص أمامنا كثيرة نسافر فيها إلى أي جهة نشاء . وليس من الضروري أن نسافر إلى الخارج . وهل رأينا بلادنا حتى نذهب لنتنزه في الخارج ؟

— هكذا أريدك دائماً . بالله رفهي عن نفسك قليلا ... إضحكي والله

فقبلها بين عينيها وفي وجنتيها بشغف وهو يقول : أنت ملاك يا ماجدة .. أنت ملاك

***

عاد أحمد بعد أداء فريضة الجمعة إلى المنزل وهو لايزال يفكر في حالته . إنه يكاد يجن ، إنه يطلب من الله في ضراعة أن يريحه من هذا العذاب وأن ينتزع من قلبه حب ماجدة فلا يفكر فيها بعد ذلك ولا في زوجها الذي يمقته من كل قلبه ويود لو يسحقه سحقاً

أيذهب إليه في عيادته ويرديه قتيلا على مرأى من مرضاه ؟ أم يذهب إليه في منزله ويقتله هو وماجدة في ساعة يكونان فيها غارقين في بحر من السعادة والحب ؟ وأيهما ذلك الرجل القاسي ؟ إنه يحتقره ولا يريد أن يراه ، إنه يود لو يفتك به هو أيضاً .

ولكن ها هي ذي كلمة الخطيب ترن في أذنه : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) إذن ماذا يفعل؟ إنه إذا لم يصنع شيئا فهو قاتل نفسه لا محالة دون أن يشعر . إنه ينتحر ببطء .

كيف يستطيع أن يصبر على هذا الشقاء ؟ وكيف يتحمل هذا بعد هذه السنين التي قضاها هو وماجدة في هناءة وسعادة ؟ ماذا يفعل إذا هزه الشوق لرؤيتها والتحدث إليها وسماع صوتها العذب ؟ أيتسلل مثل اللصوص إلى منزلها ليظفر منها بابتسامة أو كلمة؟ أم يقتحم منزلها ليسلا ويختطفها ويذهب إلى حيث لا يعلم إلا الله ؟ أي خيال مضحك ذلك الذي يداعب أفكاره وهو مضطجع على فراشه وقت الظهيرة بعد الصلاة ؟ إن هذه الحياة كانت ممكنة في العصور الوسطى حين كانت الفوضى ضاربة في الأرض ، وحين كانت قوة الانسان ممثلة في الفرد ، فهو وحده كان أمة ، وكل الدنيا كانت وطنا له يضرب فيه أين شاء وأنى يشاء . وهو قدير على اجتلاب الرزق في كل وقت وفي أي مكان .. لقد أصبحت الأفكار والأخيلة تسخر من عقل أحمد وتجعل منه أعوبة . والحق أن الصدمة كانت قوية عليه وهو لا يزال في سن صغيرة ووراءه أمه المسكينة وأمامه مستقبله فما كان هناك شيء يستطيع أن يتلهى به سوى الخيالات المضحكة والأماني الكذاب .

***

مرت الأيام متشابهة ممولة ، وكان أحمد يقضي معظم أوقاته في مقهى مواجه لمنزل الدكتور عبد المجيد. ولمحه الدكتور مرارا وهو يحوم حول المنزل . والحقيقة أن أحمد لم يقابل ماجدة بعد زواجها إلا مرة واحدة حين وجدها مصادفة خارجة من منزل إحدى صويحباتها .

وقد وجد أحمد في يوم من الأيام أن الفرصة سانحة لرؤية ماجدة فقادته قدماه بدون تفكير وصعد إلى المنزل ودق الجرس، وكان قلبه يخفق بشدة، وكل عضو من أعضاء جسمه ينتفض ، وفتحت ماجدة الباب بنفسها فدخل بدون استئذان وأغلق الباب

ووقفت ماجدة أمامه مبهوتة جازعة وقالت :

— أحمد! لماذا أتيت ؟

— لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك يا ماجدة . سأجن

فملكت ماجدة عواطفها وقالت له بلهجة حاسمة :

— أرجو يا أحمد أن تعود من حيث أتيت فليس هذا مكانك

فبدا التأثر على وجهه وقال غاضباً :

— أتطردينني يا ماجدة من منزلك ، ذاك الذي كان يجب أن يكون منزلي ... آه ... إنك غافلة . أنا حضرت الآن لآخذك بالقوة ، وإذا مانعت فسأقتلك وأقتل الدكتور عبد المجيد

فقالت ماجدة منفعلة : أحمد ! أرجو أن تتركني للأقدار . . وخارت قواها فارتمت على أحد المقاعد وأجهشت بالبكاء وهي تقول : إنني أتعذب يا أحمد ... إني أتعذب ...

فاقترب منها أحمد وقد أثار هذا المنظر أعمق عاطفة في نفسه ، وحركت دموعها المنهمرة في مرارة وأسى كل أشجان قلبه ، ولكنه ملك زمام نفسه وذهب إليها وجلس بجانبها وقال :

— ماجدة ... أتبكين ... لا ، قومي فأنا ذاهب. لن تريني بعد الآن . لقد كنت مجنوناً . أنا كنت أريد أن أراك . كنت أود أن أسمع صوتك . صحيح أنك الآن لست لي

وهم أحمد بالخروج فأمسكت به ماجدة ونظرت إليه نظرة حيرة وتوسل ، فدفع يدها ببطء وقال لها :

— دعيني أذهب ، فلست أنا أحمد القديم . لقد أصبحت تحبين زوجك حتى الجنون . دعيني

فانتفضت ماجدة وكأنما أعادت هذه الكلمات ذكرياتها القديمة ، وقالت له والدموع لا تزال تجول في عينيها :

— إرحمني يا أحمد . إرحمني . ماذا يمكنني أن أفعل ؟ إنني إذا خنت زوجي فلن أسلم من ضميري وإنني الآن صابرة على حكم القدر . آه يا ربي . ياليتني كنت مت

فنظر إليها فجأة وقال لها في ثبات وعزيمة :

— اسمعي ، هيا نهرب

— إلى أين ؟

— إلى حيث يشاء الله

— ووالدتك لن تتركها ؟ إنها تموت من أجلك . وأبي ماذا يكون موقفه أمام الناس ؟ لا لا يا أحمد كن عاقلا

— إذن سأذهب ولن تريني بعد الآن

فعاد اليأس والحزن يرسمان على وجنتيها صورة رائعة من الدموع ثم قالت له :

— تعال يا أحمد ، ولكن لا تدع أحداً يراك

* * *

كانت مخاطرة شائكة تلك التي أقدمت عليها ماجدة ، وقد ظل أحمد يزورها في منزلها في غياب زوجها ، وإن هذا اللقاء وإن كان قد أحاطته العفة في مبدئه إلا أنه قرب الجريمة إلى نفسيهما شيئاً فشيئاً ، فالانسان مهما وبلغت نفسه من القوة والسمو فانه يصل أحياناً إلى درجة من ضعف الارادة يستوي فيها مع الحيوان

إن هذا هو رأيي . ولست أدري إلى أي درجة وصل إليها أحمد هو وماجدة أثناء تلاقيهما في بيت الزوجية ؟ إنني أعرف أن أحمد كان شاباً مهذباً ولو أنه كان طائشاً إلى حد ما ، وأن ماجدة كانت فتاة

رقيقة الاحساس ذات ضمير حى وأخلاق عالية

لقد داخل الدكتور عبد المجيد الشك فى زوجته ، وظن بها ظن السوء خصوصاً وقد علم ما كان بينها وبين أحمد من علاقة سابقة ، وإلا فما هذا الجمود الذى يلاحظه عليها ؟ وما هذه المعاملة الجافة التى يلقاها منها فى بعض الأحيان ولم تمض مدة طويلة على زواجهما ؟

على أنه قد دهش حينما وجد زوجته قد تغيرت فجأة وصارت تتكلف الابتسام وتحاول أن تجعل كل معاملاتها له أكثر رقة ، وأن تكون فى كل حالاتها أكثر بشاشة مما كانت قبل . غير أن ذلك كان مما قوى الشك فى نفسه فانه شخص مجرب يعرف الابتسامة المزورة من الابتسامة الحقيقية . لقد دبت الغيرة فى نفسه وعزم على أمر ...

دخل المنزل متجهماً فى مساء أحد الأيام وأخبر زوجته أنه مسافر إلى الاسكندرية لأمر هام وسيرجع إليها فى ظهر اليوم التالى ، وخرج مسرعاً وركب سيارة واتجه إلى محطة القاهرة

فجاء أحمد كعادته فقابلته ماجدة بفرحة غير معهودة وأخبرته بأن زوجها سافر وأنه يستطيع أن يجلس معها فى جو من الحرية أكثر مما تعود . وما كادت تندمج فى هذه الحرية حتى بدت لها صورة زوجها يفتح باب داره ، فارتدت إلى صوابها وتنازعتها أفكارها حتى طوى هذه الأفكار أحمد بحديثه العذب الذى انتهى بأن أغراها بتناول كأس من الخمر معه لكى يضيعا ما بهما من وساوس ويذهبا ما يتملكهما من أفكار

وما كادا يمدان المدة لذلك حتى دخل الدكتور عبد المجيد ووقف بجوار الباب وعيناه تقدحان شرراً فقام أحمد ووقف أمامه وجهاً لوجه ، وصرخت ماجدة لما رأت زوجها وجثت باكية تحت قدميه تطلب منه الصفح ، فركلها بقدمه ، وأخذ ينظر إلى وجه غريمه بقسوة ، وجعل يتفرس فى وجهه ، وقال وهو يرتعد :

« آه يا سافل ... آه يا جبان ! » وهجم عليه وأمسك بعنقه ، واشتبك الرجلان فى عراك عنيف وكان أحمد قوى الجسم فاستطاع أن يفلت من قبضة خصمه ويلقيه على الأرض ووقف ينظر إليه وهو يلهث فى غضب واهتياج ، وقام الدكتور وأخرج من جيبه مسدساً وسدده إليه وقال :

— إنى سأقتلك يا سافل يا وغد . وحاول أن أن يضغط على الزناد ولكنه كان مغلقاً . وفى هذه اللحظة لمح زوجته ملقاة على الأرض وقد أغمى عليها من هول الموقف ، فقال : « إنها هى التى تستحق القتل » . ثم عاد إلى نفسه وقال : « ولكن هذا فظيع ... إسمع يا هذا ، لقد وهبتكما الحياة . إنك تحبها وهى تحبك ... هذا حسن » فأفاقت ماجدة وقالت بصوت مذبوح : سامحنى ياعبد المجيد لقد أخطأت ! فوضع المسدس فى جيبه وذهب إلى الباب وأغلقه وأنهض ماجدة وأجلسها إلى المائدة التى أعدتها وأمر أحمد بالجلوس أمامها وسكب الخمر فى كأسيهما وقال لهما وهو يضحك ضحكة قاسية :

— إشربا نخب هذه الليلة السوداء

فامتنعا عن الشراب فأخرج مسدسه وصاح بهما بصوت هائل والشرر يتطاير من عينيه :

— إشرب ... إشربى ...

فشربا . فانفرجت أسارير وجهه وصار يشرب هو كذلك كأساً بعد كأس حتى أتى على ما فى

الزجاجة ولعبت الخمر برأسه فقال لأحمد :

— الآن هات ثمن الليلة وثمن الخمر أيها التلميذ الصغير ...

فنظر إليه نظرة قاسية وقال له : أيها الحيوان!!

فسدد إليه الدكتور مسدسه وهو يقول :

— ثمن الليلة وإلا قتلتك فى الحال

فأخرج أحمد ريالاً كان فى جيبه وألقاه على المنضدة قائلا :

— خذ هذا ثمناً لهذا المشهد التمثيلى الذى قمت به ... فقال له :

— شكراً ... الآن تستطيع أن تخرج ولست أريد أن أرى وجهك بعد هذه المرة ثم دفعه بشدة إلى الباب

ومضت هذه الليلة وكأنه لم يحدث شئ . ولما أصبح الصباح نادى الدكتور عبد المجيد زوجته وأخرج من جيبه قطعة النقود ووضعها تحت الكأس التى شرب منها أحمد وقال لها بصوت خافت : سيبقى هذا الريال هنا إلى الأبد ، وإذا انتقل من مكانه فأنت طالق .

أصيب أحمد بصدمة عصبية قوية ألزمته الفراش . ولما أبل من مرضه علم أن ماجدة ماتت . لقد كان الدكتور عبد المجيد يستطيع أن يرحمها ويرحمه فيقتلهما فى تلك الليلة المشؤومة ، إلا أنه اختار لزوجته موتة أخرى بطيئة ، بواسطة الكأس وقطعة النقود وترك أحمد يعود إلى الحياة ويبنى مستقبله على أنقاض الماضى الحزين .

مصطفى صبحى

الجودة الفائقة و الذوق الجميل
والثمن المعتدل
تلك هى العوامل الثلاثة التى تسير عليها
شركة مصر لنسج الحرير
عند ما تنتج أفخر أنواع الأقمشة الحريرية
ألحوا فى طلب منتجات
شركة مصر لنسج الحرير
إحدى مؤسسات بنك مصر

حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادى والخمسون

أتباع السفير يعودون

استبق السفير محبوباً لحراسة الشركية وأعاد سعيداً معنا إلى طهران . وقد ودعنا لوندرا وولينا وجوهنا شطر طهران ، وكان طريقنا فى العودة غير شائق مثل طريقنا فى المجىء ، وقد تبادلنا مع السفير الكلمات الطيبة التى تقال فى مثل هذا المقام، وصفح كل منا عن الآخر . وعهد بنا إلى ربان الباخرة فأصبحنا فى وصايته وأصبح واجبه أن يسلمنا إلى مندوب فارسى فى الآستانة سواء أكنا أحياء أم جثثاً هامدة

وكان هذا الربان رجلا ملفوح الوجه بالهواجر كأى رجل تركمانى محارب، ووجدناه غليظاً متجهماً وكان يقدم لنا كل يوم طعاماً من اللحم والطيور ، ولكنه لم يقدم لنا شيئاً من الأرز . ومن حسن الحظ أن المقدار الذى جئنا به من فارس لم ينقص كثيراً فأخذنا منه جانباً وتركنا للسفير سائره

وقبل سفر الباخرة رأينا عشرين أو ثلاثين رجلاً فى يد كل منهم ورقة وقلم من الرصاص ، وكلهم يكتبون وصف ما يشاهدونه . وقيل لنا إن هذه مهمتهم اليومية لأنهم مخبرون للصحف

وسأتجاوز عما رأيناه من المتاعب فى السفينة . ولكنى أقول: إن تلك المتاعب تربو على كل ما قاساه المسلمون من جميع الدنيا من يوم أن نشأ الاسلام إلى اليوم ، فمن عاصفة إلى زوبعة إلى إعصار ، حتى إذا ما استقرت الحال وسارت السفينة فى أمن واطمئنان عادت إلى ما كانت عليه فتتأرجح بنا بين جبال من الأمواج

وأخيراً جاءت الساعة السعيدة التى ظهرت لنا فيها قباب المساجد ومآذنها . وكان المنظر بديعاً فحمدنا الله وصلينا صلاة الشكر . وقد تجسم فى نفوسنا شعور الفرح فهممنا بالنزول إلى الشاطئ والخلاص من السجن والسجان . ولما قابلنا مندوب فارس ألقينا عليه ألف سؤال وسؤال عن فارس وعن أصدقائنا وأقاربنا فيها . وكانت شكوانا مرة من ربان السفينة . وقص عليه محمد بك كل شىء مما رآه مما يخالف الشرع الشريف فى بلاد الفرنجستان . ثم ذهبنا إلى بيت السفير الانكليزى فسلمنا إليه ما معنا من الرسائل المرسلة إليه . وقد وجدنا الانكليز فى الآستانة لا يستقبلوننا بمثل الحفاوة التى يستقبلنا بها الانكليز فى بلادهم ولا بمثل الدهشة التى كانوا يبدونها نحونا وسبب ذلك واضح وهو أننا كثيرو الشبه بالأتراك وقد ألفونا

ثم استأنفنا السير إلى بلادنا

الفصل الثانى والخمسون

حاجى بابا فى طهران

استأجرنا البغال وأعددنا معدات السفر، وفى مدى أيام قلائل كنا على مقربة من حدودنا وكانت قلوبنا تخفق سروراً، ولم يحدث فى الطريق ما يستحق

الذكر . وكنا نفكر في العادات التي اعتدناها بالغرب وفي عادات بلادنا القديمة فنجد السيئ والحسن في كليهما

وفي أثناء الطريق زرنا الباشا في أرضروم واتضح لنا أنه لم ينسنا ولم ينس السفير . وفي تبريز تمسحنا بأعتاب الحاكم وهو من أمراء الأسرة المالكة ، وقد سألنا أسئلة دلتنا على أنه عين من قبل كل الذي عيناه في أثناء الرحلة . ولا يفوتني أن أذكر أننا قابلنا قبيلة من الأكراد على أثر خروجنا من أرضروم فأصروا على أخذ أمتعتنا عنوة ولكن فرقة من جنود الباشا التركي كانت تتولى حراستنا فقاتلتهم وألجأتهم إلى الفرار

وأخيراً وصلنا إلى طهران فقابلنا أصدقاءنا الذين كانوا في انتظارنا على أحر من الجمر ، وقد عزمت على أن أسلك خطة من الترفع تتفق مع المكانة التي استفدتها ، ومع المعلومات التي تلقيتها في رحلتي الأخيرة

ذهبت تواً إلى بيت رئيس الوزارة فوجدته قد ذهب إلى بيت الشاه فتبعته إليه وسلمته ما معي من الخطابات ووقفت منتظراً أوامره . وقد تركني واقفاً أمامه عدة دقائق قبل أن يأذن لي بالجلوس . ووجدت كثيراً من أصحابي في انتظاري فحيوني وهنأوني وسألوني عن الحالة في بلاد الانكليز فقال أحدهم إن النساء هناك لا يخجلن . وقال آخر إنهم يعبدون الصليب . مما يدل على الجهل بأحوالهم كما أن الانكليز يجهلون أحوالنا

وفي هذه الأثناء أبلغ رئيس الوزارة الشاه بخبر قدومي فنوديت ودخلت باحترام وألقيت بين يدي جلالته خطبة قصيرة وحرصت بقدر الامكان على أن أجمع بين موقف الوزير الانكليزي أمام ملكه وبين موقف الوزير الفارسي أمام الشاه

قال لي الشاه متلطفاً رداً على خطبتي : «سررت بعودتك يا حاجي بابا »

فأحنيت رأسي على طريقة الوزراء الانكليز فقال : « مرحباً بك »

فأعدت إحناء رأسي

قال : «هل أتيت بهدايا من شاه الفرنجستان؟ »

فقلت : « نفسي فداك يا جلالة الشاه لقد أتيت بهدايا قدمتها لأمين القصر » ثم أخرجت من جيبي عشرين جنيهاً من النقود الانكليزية ووضعتها على عتبة العرش وقلت : « وهذا الذهب أضعه متفائلا على أعتاب عرشكم »

فابتسم الشاه وقال لرئيس الوزارة الذي كان واقفاً بالقرب منه : «إن حاجي بابا خادم مطيع وقد بيض وجهي في بلاد الفرنجستان »

قال رئيس الوزارة : « نعم نعم يا جلالة الشاه وحيث يوجد أتباع جلالتك نبيض وجوه الفارسيين » ثم قال لي الشاه : « صف لنا بلاد الفرنجستان » فقلت : « هي بلاد واسعة تختلف في كل أحوالها عن بلادنا »

قال : « وازن بينها وبين بلادنا » فقلت : « لا وجه للموازنة يا صاحب الجلالة فهي بالقياس إلى إيران مثلي مع ضعفي بالقياس إلى جلالتكم »

فالتفت الشاه إلى رئيس وزارته وقال : « لكل بلاد محاسنها ولكن لا توجد في الواقع بلاد مثل إيران» ثم استشهد ببيت من شعر حافظ الشيرازي في مدح فارس . فقال رئيس الوزارة : « أين شعر حافظ مما قلتموه جلالتكم من الشعر . وهل في العالم كله شاعر مثل مولانا فتاح علي شاه ؟ »

فابتسم الشاه وقال : « ليس فى الانصاف غضاضة فان الشيرازى شاعر معدوم النظير » ثم التفت إلىّ وقال : « هل فى بلاد الفرنجستان شعراء ؟ ! قلت : « نفسى فداك يا جلالة الشاه ليس عندهم أمثال السعدى والشيرازى ولكن عندهم شعراء على كل حال » فقال الشاه : « تعنى أنه ليس عندهم بلابل ؟ » فقلت : « نعم ليس عندهم بلابل يا صاحب الجلالة ولكن عندهم كلاباً . والحق أن إنشادهم بالقياس إلى إنشادنا كالعواء بالقياس إلى التغريد »

فسر الشاه من هذا القول وضحك وقال : « إذن فعندهم شعراء ، فماذا عندهم غير ذلك ؟ هل نساؤهم جميلات ؟ »

قلت : « نعم ياجلالة الشاه ، وأى جمال ! عندنا اليهوديات والروسيات والأرمنيات ومن كل جنس ودين وليس بين جوارى الشاه جارية انكليزية وفى الانكليزيات الجديرة بأن تكون فى خدمة جلالتك »

فقال الوزير : « ولماذا لم تأت بجارية منهن هدية للشاه ؟ »

قلت : « تلك غلطة منى فلو أمر الشاه سفيره بأن يعود بجارية انكليزية لقرت بها عيناه »

فقال الشاه : « لم تخطئ فى القول ياحاجى بابا » نحن نريد جارية انكليزية ليتم نظام حرمنا الشاهانى »

ثم التفت إلى رئيس الوزارة وقال : « وماذا تذكره لنسأل عنه حاجى بابا ؟ » . فقال رئيس الوزارة : « زجاجة التجسس يا مولاى ! »

قال الشاه : « أخبرنى يا حاجى بابا هل رأيت عندهم زجاجة التجسس ؟ »

فقلت : « نعم يا صاحب الجلالة . عندهم شىء غريب مستطيل اسطوانى الشكل وفى نهايته زجاجة مسحورة يستطيع الانسان بها أن يرى الجيش عن بعد عشرات الفراسخ دون أن يراه الجيش الآخر . وهى تظهر الشىء البعيد جداً كأنه على بعد أمتار قليلة . ولقد رأيت فى بلاد الفرنجستان أشياء معدومة النظير »

قال : « تكلم يا بنىّ . ولكن إياك أن تكذب بحضرة الشاه . وإذا كذبت فلن تجد رحمة فى نفسى »

قلت : « نفسى فداك يا صاحب الجلالة . لقد رأيت سفناً كأن الواحدة منها مدينة وهى تمشى فى الزوابع والأعاصير دون أن تتمايل »

قال الشاه : « لقد حذرتك من الكذب يا حاجى بابا »

فقلت : « نفسى فداك ما قلت إلا ما رأيت »

فتلطف الشاه وسألنى : « أى شراع يجر هذه السفينة ؟ وما طوله ؟ وما عرضه ؟ »

فقلت : « إنها تسير ببخار الفحم » ثم أخذت أشرح معلوماتى فى هذا الموضوع وهو ينظر إلىّ نظرة استغراب كأنى أقص عليه قصة من قصص السحرة . ثم أعاد سؤاله عن زجاجة التجسس . وسألنى عما رأيت غير ذلك . فقلت : « إن أغرب ما رأيته هو النور الذى ينبعث من منارة السفن فى أثناء الليل ، فانه يرى عن بعد لتهتدى به السفن ويتحرك ويدور ظاهراً بهيئة جسم عمودى ولا يتكلف إلا أقل النفقات ويؤدى أكبر النفع » . فدهش الشاه وأخذ يسألنى فشرحت له معلوماتى عن المنارات أيضاً وقال : « لقد كنت أعرف أن الانكليز يصنعون الأقمشة الجيدة ولكن لم يخطر ببالى أنهم يصنعون النور الفاتن » . ثم قال : إنهم من أشهر التجار ولا يبعد أن يكونوا قد صنعوا هذا

النور ليفتنوا به أتباعهم الفرسيس الذى يعبدون النار فى الهند

قلت : « هو ذلك يا جلالة الشاه » واقترحت على جلالته أن يأمر السفير بأن يرسل إليه صندوقاً من العجائب الانكليزية

فسألنى : « هل صحيح ما يقولونه عن شدة العواصف فى انكلترا ؟ »

فخطر لى خاطر بديع وقلت : « نعم يا جلالة الشاه إن العواصف هناك لا يدركها العقل ولقد هـبّت عاصفة وأنا فى الطريق وكنت فاتحاً فمي فطوحت الرياح بثلاثة من أسنانى وألقتها فى جوفى »

ثم فتحت فمى وأريته مكان أسنان ثلاث مكسورة من رمحة جواد . وأكدت له أن العاصفة هى التى أسقطتها فاستغرب الشاه هول تلك العواصف وحمد الله على أنه لم يذهب إلى الفرنجستان وإلا لنزعت الريح لحيته من وجهه

ثم أمر لى الشاه بخلعة سنية وصرفنى من حضرته مسروراً . فذهبت وأنا أدعو له ونفسى طامحة إلى الحصول على لقب خان، فأذعت بين إخوانى أني سأحصل على هذا اللقب . وفى الحق أن كلمة « حاجى بابا خان » ذات نغمة موافقة وجرْس بديع فلماذا لا يكون اسمى كذلك ؟

وقد تسامع الناس أنه أنعم علىّ بهذا اللقب ، وصار الشاه نفسه لا يقول لى «ميرزا حاجى بابا» بل يقول «حاجى بابا خان» ولا أعرف هل كان ذلك مزاحاً من جلالته أم جداً . ولكنه على كل حال فأل حسن

بيد أن رئيس الوزارة كان يصم أذنيه عن أقوال الناس حول هذا اللقب وإضافته إلى اسمى ، وما ذلك إلا لأن السفير فيروز خان قريبه وهو يضن علىّ أن أنال مثل مرتبته وأنا مرؤوسه

وعشت مسروراً أنفق من المال الذى خبأته قبل سفرى عند قبر « زينب » ولم يحدث ما يسوءنى ولم ينقطع أملى فى الحصول على الرتبة . وكنت أقضى أوقاتى فى التحدث مع أصحابى عن العجائب التى رأيتها فى الفرنجستان وفى ترجمة بعض الكتب الانكليزية

وكنت كثيراً ما أتشرف بزيارة الشاه وأسمعه من كلماتى ما يقربنى من أملى فى الحصول على اللقب

والآن أيها القارئ الكريم أتشرف بأن أقبل قدميك وأطلب الحماية فى جيب قفطانك وأرجو ألاّ يقصر الله ظلالك حاجى بابا خان

« تمت » عبد اللطيف النشار

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾